الفردوسي

الشاهنامة

ملحمة الفرس الكبرى



دار العلم للملايين - بيروت

الشاهنامة

ملحمة الفرس الكبرى

لأبي القاسم الفردوسي

ترجمة: سمير مالطي

دار العلم للملايين

ص.ب ١٠٨٥ - بيروت

الشاهنامة

الطبعة الأولى ١٩٧٧

الطبعة الثانية
أيلول (سبتمبر) ١٩٧٩

١

ما قبل الانشقاق

في البدء ، مَلَكَ العالم كله مَلِكٌ يُدعى جيومرت ، وقد خصّه الله بعناية فائقة . فبالإضافة إلى قوته وشهامته، حبّاه بجمالَ الوجه وبهاء الطلعة . وجَعَلَ مركز إقامته في الجبال ،ومنه انتشرت الحضارة في العالم . وارتدى جيومرت جلد النمر ، فكان سبّاقاً في هذه البِدعة، لأن الثياب كالطعام تماماً لم تكن قد عُرفَت بعد . وكان جميع الإنس والجن يخضعون لمشيئتـــه ، فازداد عظمةً وجبروتاً ممـــا أدى إلى انبثاق الديانة .

وكان لجيومرت الملك ، ابنٌ يُدعى سيامك ، أحَبَّه حُبّـاً جَمّـاً ، وربّاه تربيـة جديرة بالملوك ، مُحافظـاً عليـه ، مُبعداً إيـــاه عن كل أعمال الجن والسحر . فلما

نشأ ، وظهرت منه بوادر السلطنة ، ظهر لـــه عدوّ من الجن ، أخذ يتتبع تنقلاته وأفعاله ، قاصداً إهلاكه . فلما عَلِمَ بذلك ،قرر محاربة ذلك الجنيّ ، فنزل لملاقاته لابساً جلد النّمر. لكن الجنيّ سرعان ما أنشَبَ مخالبه في صدر سيامك ، فأرداه قتيلاً غير آبــه بجمال منظره ، وجلال طلعته ، ومُلْكِ أبيه الواسع .

عَلِمَ ملك الملوك جيومرت بموت وحيــده ، فحزن عليه حزناً شديداً وتدفقت مشاعره أنيناً متواصلاً ، وزفيراً ملتهباً ، ودموعاً ساخنة جرت كالدمـــاء . وجاءَ جميع القوم يشاركونه فجيعته. وبقي على تلك الحال سنة كاملةً.

وكان لسيــامك ولدٌ يُدعى أوشهنج ، سلّمه جده مقاليد الزعامة والحُكم. وقررا معاً مقاتلة الجني على رأس جيش مؤلف من الجن والحيوانات الضارية والأليفة. وبعد معركة ضاريـــة جرت بينهما ، استطاعت الوحوش الفتك بالجنيّ ، وأردته قتيلاً . وبذلك يكون الانتقـــام لـــدم سيامك قد تمّ على أكمل وجه .

مات جيومرت بعد ثلاثين سنة من المُلك، وبقي اوشهنج ملكاً ، ذا رأي رصين ، مُحافظاً على سِمات العظمة التي انتقلت اليه عبر أسلافه .

ذات يوم بينما كان اوشهنج على سفح أحد الجبال ، ظهرت له حيّة ، عيناها كبرك من الدم ، ولهيبها دخان أسود يغطي العالم بدكنته ، فتناول حجراً ، ورماه بها لدرء خطرها ، فاصطدم الحجر من قوة الضربة بصخور الجبل ، وأحدث باصطدامه شعلة متوهجة . فأفلتت الحيّة، وكانت النار .

سُرّ أوشهنج باكتشافه، فسَجَدَ شاكراً ربه تعالى على تلك النعمة ، متخذاً النار قبلة ، وهذا سبب تعظيم النار عند الفرس .

لما خيّم الظلام أشعل اوشهنج ناراً كبيرة ، انتشر وهجها في معظم الأرض ، حتى ظُنّ أن الشمس لم تغرب ، والنهار لم ينته . وظلّ ملوك الفرس أباً عن جد يحتفلون بتلك الليلة الفريدة التي أصبحت عيداً يُعرف بالسّدق . استمرّ اوشهنج حاكماً بمعونة الله ، مستغلاً كل شيء من حوله لخدمة شعبه . فاستخرج الحديد من الحجر ، وصنع منه الفؤوس والحراب . وشقّ الجداول إلى الصحارى، وبذر البذور فيها ، ونمّاها بالمياه ، واتخذ من جميع البهائم كل نوع يصلح للعمل كالبقر والحمر وغيرها ، واصطاد الحيوانات البريّة ، واستعمل جلودها للملابس والمفارش .

فعمّ الرخاء والعدل عهده ، وطـاب العيش . لكن سيف المنية لا يُبقي على حيّ ، فعاجله الارتحال عن هذا العالم ، ومات بعد أن مَلَكَ أربعين سنة .

مـات الأب ، فتولى الابن طهمورت المُلك والقيـــادة الحكيمة . وأخذ يتدرج في اكتشافاته من حقل إلى آخر ، حتّى استطاع ان يروّض الوحوش الكاسرة .

وحدث ان الجن تآزروا ضده لأنه سجن عفريتاً منهم . فما كان منه إلا أن حاربهم وانتصر عليهم ، وسجن الكثير منهم ، فما استطاعوا احتمال حياة الذل والقهر ، فعاهدوه على تعليمـــه الخط والكتابة على ثلاثين نوعـــاً من الألسنة المختلفة ، إن هو أطلق سراحهم . فكان ذلك بداية لانتشار الخط بين الخلق .

٢

الانشقاق

سار جمشيذ على خطى أجداده بعد وفاة أبيه طهمورت . فأحسنَ معاملة شعبه،ونشر بينهم العدل والإحسان والرحمة . وبفضل ذكائه ، تفنن في صنع آلات الحرب من سيوف ورماح وخوذ ودروع حتى استكفى . واتخذ الكتّان والحرير والصوف بعد غزلها ونسجها مادة للملابس . وانتشرت الصناعات ، وعَمّت أقطار الأرض . ووضع الجن تحت إمرته وسخّرهم بأعمال صعبة ، وقسّم الناس إلى كهّان ومحاربين وزرّاع وحرفيّين ، وبنى المدن ، واستخرج المعادن النادرة . وعرف أسرار الصناعة الطبية ، وما يستتبعها من علوم ، كعلم الأدوية . وتنقل بمركبة في أطراف الأرض ، وطار إلى كل الممالك على سرير مرصع

بألوان الجواهر ، حَمَلَهُ الجن في أول يــوم من السنة وقت حلــول الشمس في برج الحمــل . فَسُرَّ سروراً عظيماً ، وانتشى بــأقداح الخمر ، ليُعْرَفَ ذلك اليوم بالنيروز ، وليبقى عُرفاً مقدساً عند الفرس . فلما استكمل جميع أسباب العز والرخـــاء ، تجبَّرَ وتَكَبَّرَ وتَسَلَّطَ وتخلى عن المعونـة الإلهيــة . فاضطرب حكمه ، وعمَّت الفوضى ، ودبَّ الذعر ، وانتشر الفساد ، وهرب العلماء والحكماء ، وارتجَّت بذلك الأرض والسماء .

انشقَّ ملوكُ الفرسِ أجمعون عن طاعة ملكهم الأكبر، واستبدّوا في الرأي والملك ، واجتمعوا الى الضحّاك ابن ملك العرب ليخلصهم من جمشيذ . فما كــان منه إلا أن نصَّب نفسه ملكاً عليهم ، وقصد جمشيذ الذي هرب الى أرض الهند واختفى ليظهر بعد مرور مائة سنة . فقصده الضحّاك ثانية ، وقضى عليه ، آمراً بقتله بالمنشار بعد حكم دام سبعمائة سنة .

أما الضحّاك ، فهذا لقبه ، وهو بيوراسب بن مرداس ملك العرب الذي عُرفَ بصلاح حُكمه ، وحبه لشعبه . وهو شاب يقتني آلاف الخيل المسرجــة بسروج الذهب والفضة ، والمرصعة بالجواهر الثمينة . يحب اللهو والطرب

والصيد والطرد . وكان له من الجن خادمٌ يُدعى إبليس، وضع نفسه في خدمة الملك الشاب بعد أن ظهر له في زي شاب جميل . فلما نال ثقة الملك بخدماته المرضية ، استطاع أن يفرض رأيه ، وان يُغري الملك الشاب باستلام الحكم من والده بقتله ، وفرْضِ سيطرته ومُلكه على العرب أجمعين .

لكن الضحّاك تردد في بادىء الأمر ، فكيف يقتل والده دون أن يُجازى على فعلته ؟ أما إبليس ، فظلّ يُوَسْوِس للضحّاك حتى وافق هذا الأخير على قتل والده .

وذات ليلة ، كان الملك الأب قد خرج ليتطهر في بستان اتخذه لخلواته وعباداته ، فسقط في بئر مغطاة بالحشيش . ولما لم يستطع النهوض ، جاء ابليس وطمرها بالتراب ، وسوّاها بالأرض ، وانتهى من الملك الأب ليسلّم مُلكَ العرب إلى الضحّاك . لكن ابليس عاد وظهر في شكل طباخ ، بعدما استلم الضحّاك مُلكَ أبيه . فَقَبِلَه هذا الأخير في خدمته ، وسلّمه مطبخه الملكيّ . فصار يتفنن في صنع الأطعمة ، معتمداً في أصنافها على لحوم الحيوانات بعدما كانت النباتات تشكل الطعام الرئيسي . أُعجِبَ الضحّاك بصنيع هذا الطبّاخ ، فأحبّ أن

يكرمه ويحسن اليه . فسأله : « ماذا تطلب ؟ » .

أطلقَ إبليس لسانه بالدعاء ، داعياً للملك بدوام مُلكه، وثبات عزه . وطلب منه أن يقبِّل منكبيه . فقَبِلَ الملك متعجباً ، وتقدم ابليس مقبِّلاً منكبيه . فما ان فعل ذلك، حتّى غاب عن الأبصار ، واختفى في الأرض ، وظهر من كل منكب حية سوداء أرعبت الملك والجمعَ وأفزعتهم .

حضر الأطباء والحكماء ، ونصحوا الملك بقطع المنكبين . فلما قُطعتَا نبتتا في الحال كما كانتا ، وظلّتا على ذلك حتّى عجز كل الأطباء عن مداواة ذلك الداء . ثم ظهر ابليس متنكراً بزي طبيب ، وقال للملك : « إنه قضاءٌ أجراه الله عليك ، ولا بد من تربية الحيتين وإطعامها من أدمغة الناس حتّى تستريح . فإن فعَلْتَ ، قلَّ اضطرابهما ، وخفَّ أذاهما » .

وكان مُراده من ذلك كله ، أن يبسط الملك يده في قتل خلق الله تعالى ، وسفك دمائهم ، حتّى يخلص العالم من كل أبنائه .

مضت السنوات والضحاك ما زال كل ليلة ، يأمر برجلين يُقتلان ويُستَخرَج دماغهما طعاماً للحيتين . واستبدَّ بالخلق ، ونشر الرعب والذعر والجور في نفوس شعبه .

ووصلت أخباره المشارق والمغـــارب تبشّر بزوال ملكـــه ودنو أجله .

ذات ليلة كان نائماً ، فرأى رؤيا ، قضّت مضجعه، وأزعجت نفسه . فلما استفاق ، جمع جميع العلماء والمنجمين والكهّان والسحرة ، وأمرهم بتفسير تلك الرؤيا . لكنهم لم يستجيبوا لأمره ، لأنهم لـو فعلوا ، لبطش بهم ، ثم جمعهم مرة ثانية وثالثـة وألحّ عليهم بالسؤال عن أخبار مُلكِه وزوال عهده . فتقدم مـن بينهم حكيم طاعن في السن ، قـد مارسَ العلوم ، وعرف الأحكام ، وعَبَدَ الله تعالى ، فأورثه علماً كاملاً ، وأدباً بارعاً . فقام وقبَّل الأرض وقـــال : « لم يُخلق إنسان للبقاء ولا للخلود ، فاستعد لاستقبال أمر ربك الباقي الوحيد ، الذي قضى أن تكون نهاية حياتك ومُلْكِكَ على يد ملك اسمه أفريدون لمّا يولد بعد » .

صُعِقَ الضحاك مـن كلام الحكيم . فـــأمر في طلب أفريدون ، مرسلاً الرُّسل في أطراف البـلاد للفتك بـــه والتخلص منه .

٣

أفريدون

وُلِدَ أفريدون في تلك السنة ، صبياً جميلاً تختـال على وجهه أمارات السعادة والمُلك . فربّته والدته ، وأدّبته تأديباً جيداً . أما والده ، فَقُتِـل مع الذين قتلهم الضحّاك ليطعم دماغهم للحيتين .

خافت الوالدة على ولدها من شر الضحّاك ، فهربت به الى مرج تكسوه الخضرة ، يخصُّ راعياً يملك قطعاناً كبيرة من الغنم والبقر . فتعهد للوالدة بالمحافظة عليـه ، وأخذ يغذّيه من لبن بقرة خلقها الله على لون يسرُّ الناظرين ، ويعجب الخلائق أجمعين .

رجعت الوالدة بعد مضي ثلاث سنوات تريد أخذ ابنها ، لأن بطش الضحّاك كان قد تفاقم ، وانتشر بأسه وظلمه

في الأقطار التي يحكمها . فأخذت الولد ، وهربت به الى بلاد الهند ، وقصدت جبلاً عظيماً قريباً من أرض الهند، يقيم عليه راهب متنسك فاسترحمته ورجتـــه وأطلعته على سرها ، وسر ولدهـــا . فقبل إيواءه ، ولم يزل يربّيه ويعلّمه مكارم الأخلاق ، ويهديه الى مناهج الخيرات حتى نشأ وترعرع . فلما راهق ، نزل من الجبل وزار أمه ؛ فأعلمته بما كان مخبئاً عليه . فقرر الثأر لدم أبيه . لكنها نصحته بالتروي وأخذ الأمور بالمهادنة ، لأن فورة الشباب التي تتأجج في دمه قد تخونه ، فلا يستفيق إلا وهو نادم.

أما الضحّاك ، فان اسم افريدون كـــان يهز عرشه ويقضّ مضجعه . لذلك قرر دعوة كل حكيم وعالم وأجبرهم على توقيع محضر يقرّون فيه كذباً بأن الملك ما زال مثابراً على بث العدل والإنصاف بين الرعية ، وأنه يعمل ، كل ما يعمل ، من أجل راحة قومه وخلاص شعبـــه . وبينما هم يشهدون على ذلك المحضر ، إذا بصراخ عظيم يمـــلأ الأسماع من باب الإيوان . فلما سأل الضحّاك عنه ، أجيب بأنه صراخ حداد يُدعى جاوه ، جـــاءَ يشكو أمره . فسمح له بالمثول بحضرته ، فلما مَثُلَ وقدّم إخلاصه قال: « يا أيها الملك ، مالي أراني قد انتقيت من البشر أجمعين

لأقدم آخر أولادي طعاماً للحيتين ، وأنا الذي كان بالأمس قد قدّم كل اولاده » . فأمر الملك برد ولده عليه ، واستعطفه بالإحسان اليه ، وطلب منه أن يشهد على المحضر المُعَد . فأخذه بيده ، ورأى عليه معالم العُبّاد والزهّاد والعلماء . فاستشاط غضباً ومزّق المحضر ، وصرخ فيهم داعياً إياهم للتخلص من حكم الملك الجائر ، وتوجّه إلى محله في المدينة ، وأخذ قطعة جلد يغطي بها الحداد قدمه عند تطريق الحديدة المحماة ، ورفعها على رأس عصا تشبه العَلَم ، وأخذ يُنادي بطاعة افريدون . فتبعه من المظلومين خلق كثير ، وتوجهوا معه قاصدين أفريدون . فلما رآهم ، أيقن أن تباشير صُبح دولته قد همّت بالطلوع ، واستبشر خيراً بتلك الراية المرفوعة ، وكانت تسمى « درفش جاويان » . وظلّ ملوك الفرس يتوارثونها بعدما رصّعوها باللآلىء واليواقيت ، وزينوها بالديباج والحرير ، فكانت بشرى للسعادة والنصر أنّى رُفِعت .

أما افريدون ، فقد توجّه إلى والدته قاصداً إخبارها ، عازماً على منازلة ذلك الظلوم الغشوم ، واستشار لذلك صديقين له من أولاد المرازبة ، مخصوصان برزانة الرأي ورصانة العقل ، وأمرهما بأن يحضّرا له عند أحذق الصناع

وأذكاهم ، جرزاً من الحديد عـلى شكل بقرة كان قد استحدثها بفكره ، وأخذ يجمع العدّة لمنازلة الضحّاك . فلما تمّ لـه عدد وافر من الرجال والأبناء والبُهم ، قطع بهم الصحارى والجبال ، فوصل إلى شاطىء دجلـة يريد عبره بالزوارق والمراكب الموجودة . فامتنع أصحابها عن ذلك طالبين منه جوازاً من الملك نفسه . فاحتدم غيظاً ، وعبر النهر على سروج الخيل . وتـابع إلى أن قَرُبَ من بيت المقدس ، فرأى القصور المنيعة ، والشرفات العظيمة ، فعلم أنها للضحّاك . ثم أمر جنوده بالهجوم عليها بغتة قبل انتباه أصحابها إلى وجودهم ، ففعلوا ودخلوا المدينة واحتلوها . وتوجّـه افريدون إلى الإيوان الرفيع والقصر المنيع ، فدخله ظافراً ، ومَلَكَ كل مـا فيه من ذخائر وجواهر ، وأطلق سراح مسجونيه . وكانت بينهم شقيقتان لجمشيد ، كان قـد أسرهما الضحاك عندما استولى عـلى المُلك . فلما رأيا افريدون ، سالت دموعهما ، وأخبراه بأن الضحّاك ذهب مع جحافل عسكره إلى الهند لسفك دماء شعبها ، واستباحة ذخائرهم وأموالهم على عادته الذميمة ، وسيرته القبيحة .

جلس أفريدون على عرش الضحاك بين معاونيه وجواريه

ودخل عليه وزير الضحّاك كندرو ، فخرَّ ساجـداً بين يديه ، وأطلق لسانه بالدعاء لاستدامة ملكه العلي ، وتحادثا طويلاً عما قاساه الناس من ظلم الضحّاك . وفي الصباح ، مع طلـوع الفجر ، ركب الوزير حصانه وتوجّه إلى الضحّاك ليعلم ماذا هو فاعل بملكه . فلما وصل ، دخل عليه وأخبره بانتصار أفريدون وبأنبائـه الباهرة . فاحترق غيظاً وأمر عسكره بالارتحال ، فنهضوا وساروا متجهين نحو بيت المقدس ، فلما وصلوا ، هجموا بغتـة كالسيل المتلاطم والليل المتراكم ، ونزلوا قتلاً وسفكاً بأهل المدينة . فأخذ هؤلاء ينادون بشعار أفريدون ، ويستعيذون بأمانه . فاحتدم غيظاً وأخذ وهقاً ، وتسلق قصره خفية ، ودخل من أعلى الإيوان على أفريدون ، فألفاه جالساً مع جواريه، فعلّق الوهق وصوّبه تجاه أفريدون ، ونزل عليه كالسهم الملتهب . لكن أفريدون استطاع أن يتنحى عن طريقه ، فوقع بين يديه،وهمّ أن يذبحه من الوريد إلى الوريد . لكن الملاك الذي مَثُلَ فجأة بين يديه،نهاه عن ذلك، وعوضاً، أمره بتعذيبه وحبسه في جبل دُنياوند طوال الزمان . ففعل واقتاده إلى مغارة في ذلك الجبـل فقيّده وسمّره وأودعه هناك يُعذّب فيها إلى يوم القيامة لسوء عمله وقبح أثره .

استهلّ أفريدون عهده بمجلس عظيم حضرتــه الخاصة والعامة ، فدعوا له بطول البقاء ودوام المُلك . وأخذ يشرب معهم من أوانٍ مكللة باللآلىء ، وفضّيات موشحة بالجواهر. ودخــلت المغنّيات والجواري المسمعات ، وانتشر الغلمان يديرون الأقداح . وأمر أفريدون بنثر الدنانير على الحاضرين، حتى بات المجلس كأنــه روضة أو فردوس . فأصبحوا وأمسوا حتى اشتهر ذلك النهار وَعُرِفَ بعيد « المهرجان » . أما والدة أفريدون نامَك ، فلما بُشِّرَت بمــا آل إليه ولدها ، هللت باكية ساجدة لله ، تعفّر خدها في التراب. ثم أمرت بالجواهر للمبشّرين ، وتصدّقت عــلى الفقراء والمساكين شاكرة الله على ما خصّ ولدها من نِعَم .

أخذ أفريدون ينظر في شؤون رعيته . فبسط العــدل والإنصاف ، وهدّم قواعــد الجور والظلم ، وطاف في المشارق والمغــارب حتى عُرِف بحسن السياسة ، ووفور الرحمة والرأفة . ولمّا بلغ الخمسين ، رُزِقَ ثلاثة أشبال من بنتي جمشيد فأخذ يربّيهم كما رُبي عــلى الطاعة والإيمان . فلما بلغوا أراد أن يزوجهم ، فاستدعى وزيره جندل وأمره بالتطواف في أنحاء البلاد مفتشاً عـن أخوات ثلاث من البيوت الكبار والقبائل الشريفة ، يصلحن للاتصال بهؤلاء الأشبال .

انطلق جندل في تطوافه سائلاً ، باحثاً ، مدققاً حتى عثر على بُغية ملكه عند سرو ملك اليمن الذي وافق على طلبه بعد التحاور والتشاور مع وزرائه وأركان دولته خشية التعرض لغضب أفريدون .

ذهب الأشبال الثلاثة إلى حضرة ملك اليمن ، فبقوا عنده ردحاً من الزمن ، ثم عادوا مع زوجاتهم الى حضرة أبيهم . وبينما هم راجعون ، أراد والدهم أن يمتحنهم ، فتنكر بشكل تنين ضخم ، تكاد الأُسود من منظره ترتطم . فتنطح لهم طالباً منازلتهم . فهرب الابن الأكبر آثراً السلامة ، فسماه والده فيما بعد « سلم » . وأخرج الأوسط سيفه لمحاربته ، فسماه « تور » . أما الأصغر فهدده باسم والده الملك أفريدون ، وأمره بالانصراف إن هو أراد أن يبقى حياً ، فسمّاه « أيرج » . ثم قسّم ممالك الأرض فيما بينهم ، فعيّن لسلم أرض الروم وبلاد المغرب وما تاخمها من الممالك ، ولتور بلاد الصين والترك وسائر ما يُضاف اليها من تلك الولايات ، ولأيرج ممالك العراق مع أرض بابل إلى آخر بلاد الهند ، وجعله وليّ عهده ، واهباً إياه إكليل حكمه الرائع ، وعرشه الباهر ، وفضاء مملكته الواسع . فحكم الثلاثة في بادىء الأمر بسلام وسعادة ، لا تشوب عهودهم

شائبة ، ولا تفتر هممهم عن نشر المحبة والرأفة والإنصاف.

مـَرت السنوات تلو السنوات ، فوجد سلم أن أباه قد آثر ايرج بالعرش الباهر ، وأفضل الممالك ، وأنه زحزح الآخرَين الى طرفَين بعيدَين من نواحي الأرض . فامتلأ قلبه غيظاً ، وتراسل مع شقيقه الأوسط مُحرِّضاً ، مطالباً بالمُلك ، وحجته في ذلك انه كان من الأجدر بوالده أن يجعله ، هو الأكبر وليّ عهده ، فإن لم يردْ ذلك جعله للأوسط ، ولكن ، ليس للأصغر لِصِغَر سنه ، وخور عنان عقله . فاجتمعا ، وتعاهدا على السرّاء والضرّاء والمطالبة بتغيير ما قُرر لهما . وأرسلا رسولاً إلى والدهما يُعلمانه بما قررا ، فإن أبى ، حوّلا ملكه الواسع الى أرض خراب ، وملكا التاج والعرش قهراً .

امتثل الرسول في حضرة أفريدون ، وبعدما اطمأن الوالد الى قُرتي عينيه ، وفلذتي كبده ، وسأل عن أخبار ممالكهما الواسعة ، اعتذر الرسول عن الكلام الذي سيتفوه به ، فطلب الأمان ، فأعْطِي له ، وأخبره عما يدور في خُلد ولديه من دسائس ومؤامرات . فاتغظ افريدون غيظاً ، واستشاط غضباً ، فأبرق وأرعد وأعذر وأنذر . لكن ايرج هدّأه ، وعن غضبه أرجعه وقال له :

كانت الممالك لا تُحكم إلا بالمداورة والمناورة ، رأيت أن أركب اليهما ، وأخفف من حسدهما ، علني أجد في ذلك السبيل الشافي والعذر الوافي لإنقاذ ممالكنا الواسعة من هلاك عظيم » . فاتجه اليهما على رأس جماعة صغيرة من العسكر ، فلما وصل تلقياه بالإجلال والأبهة ، وترجل إعظاماً لقدرهما ، وإكباراً لمقامهما . فتلاقوا وتعانقوا وتجاذبوا حلو الحديث . وتمكن ايرج بما لديه من لطافة اللسان ، وحُسن الكلام أن يليّن عريكتيهما ، وينزع الغلّ من صدريهما . فتصافوا وتراضوا ورجعوا إلى ما كانوا عليه في غابر الأزمان .

ثم ان أهل تلك الممالك لما رأوا ايرج وما عليه من رجاحة العقل وجمال المحيّا ، تهامسوا وتسامروا عن خصائله وفضائله ، فكان لا يجتمع اثنان من أركان تلك الدولة وأعيانها إلا وكان ذِكْرُه سبحة لسانهما وراحة أرواحهما ونزهة قلوبهما ، مما أثار الحقد الدفين في النفوس الحاسدة. فاجتمع الثلاثة يتفاوضون في أمور المملكة ، وجاؤوا على ذكر أبيهم ، وما لقياه من ظلم وجور في تخصيص التاج والعرش لايرج ، فتردد في الإجابة مُدّعياً انه خرج من تلك المملكة متحاشياً كرههما ، ومتوخياً رضاهما . فأخذوا في الحديث حتى ثار تور كالسهم المشتعل ، وأخذ كرسياً

من ذهب كان تحته ورماه على ايرج . فتضرّع هذا الأخير وأجهش بالعويل ، ممـــا زاد تور ثورة ، فأخذ خنجراً وأغمده بشباب أخيه الناضر ، غير مُراعٍ لله تعالى حرمة، وللشعور الأخوي ذمة . فمات كالشمس الغارقة وقت الشفق في نجيع دمائه . ثم حشاه مسكاً وكـــافوراً ، ووضعه في تابوت مصنوع من ألواح الذهب ، وأرسله إلى والده .

استقبل أفريدون جثمان ولده بالندب والعويل ، وفاضت دموعه كالأنهـار الدافقة ، وأمر بهدم دار ايرج وإحراق بستانه ، واصطفّ من حوله الأمراء والوزراء يشاركونـه مصيبته . وظلّ على هذه الحـال حتى نبت العشب حواليه من فيض دموعه ، فكفّ بصره وهو ما زال يسأل الله تعالى أن ينتقم له من الفاتكين بولده السافكين لدمه .

وكانت لايرج جارية حمَلت منه بنتاً فزوجها افريدون إلى ابن أخيه بشنج فولدت منوجَهر .

سُرّ افريدون بولادة منوجَهر ، ورد عليه الله تعـالى بصره ، وأخذ يربـي منوجهر أحسن تربية ويعلّـمه آداب الملوك أحسن تعليم . فنشأ شاباً رشيقاً قوياً برعاية افريدون الذي وهبه كل أمواله ، وجواهر خزائنه الدفينة .

أذيع في الممالك أن منوجهر ينوي الثأر لدم ايرج . فما

كان من سلم وأخيه تور إلا أن أرسلا رسولاً يستقصي حقيقة الأخبار . فوصل الرسول وأدخله سابور إلى حضرة الملك. فَصُعِقَ لرؤية افريدون الجالس في صدر الإيوان مُحاطاً بجحافل العسكر ، وقد أقعد منوجهر على سرير من العاج، مُحيطاً إياه بالأمراء والقواد . فلما أدى الرسالة ، رجع إلى سلم وأخيه في أرض المغرب ودخل عليهما في خيمتهما المصنوعة من الديباج ، وأخبرهما عما رأى من جحافل الجيوش التي لا تُعد ولا تُحصى ، وعن عزم منوجهر في الثأر القريب. فتأهبا للحرب وأمرا قوادهما في التوجه إلى أرض المعركة . وهناك التقى الجيشان وتلاطما كالسيل الجارف ، وظلا على هذه الحال ثلاثة أيام .

دبَّ الضعف في عساكر الترك فرأى تــور أن يباغت عساكر منوجهر تحت جنح الليل ، فيهربون طالبين مــن الليل ملجأ ، ومن النهار فراراً . لكن منوجهر علم بخطته فاستبقه بثلاثين ألفاً من العساكر ، وانتظر قدومه . فلما جاء طلع عليه بجحافله كالفجر المُشع ، وتمكن منه في مبارزة أطاحت برأسه . فلما مات دبَّ الخوف في صفوف جنده فاستسلموا له . ثم كتب إلى افريدون يعلمه بالنصر المبين باعثــاً مع رسله رأس تور . فلما رآه افريدون تَفَجَّرت

مآقيه دماء من حيث أن قلوب الآباء ترق علـى الأولاد ، وقد تذهب الشدائد بالأحقاد .

أما سلم فلما علم بخبر أبيه ، قصد حصناً كان قد أعده ملاذاً لنفسه ، فلما دناه ، لم يجد إلا مركباً واحداً يوصله اليه . فلاقاه منوجهر وتبارز معه وفصّل هامه عن جسده . أما الحصن فقد تحول إلى أطلال مندثرة لأن منوجهر كان قد استولى عليه بخطـة محكمة وأنزل السيف في رقاب حارسيه ، ونهب جميع ما فيه ، وخرّبه وأحرق المراكب التي توصل اليه .

رجع منوجهر إلى حضرة افريدون ، فخفّ لاستقبالـه في مواكبه ورجاله ، وأخذ يقبّله ، ويمسح بيده غرتـه ووجهه ، وأمر بتوزيع الغنائم على العسكر شكراً لله تعالى على ما فعله من أجله .

أما افريدون فقد ضجر الحياة بعدما طعن في السن ، وأخذ ينتظر المنية سائلاً الله ان يعجّل في ارتحاله إلى دار البقاء . فلما قربت وفاته ، استدعى منوجهر وسلّمه العرش والتاج ، وأمره بإفاضة العدل والإحسان ، وإشاعة الأمن والأمان ، وأخذ من الملوك والأمراء عهوداً تُبايع فيهـا لمنوجهر ، ومات بعد أن ملك خمسمائة سنة .

٤

الأبطال الثلاثة

سـار منوجهر ثامن ملوك الفرس على خُطى جده ، فحكم بالإخلاص والإنصاف ، ونشر العدل والرخاء ، وعَمَّرَ العالم بالحب والإيمان ، وحرّض الخلائق على عبـادة الله تعالى والابتعاد عن معاصيه واتباع أوامره ونواهيه . فأخلص له شعبه ، ودعوا بثبات دولته ودوام مدته .

في هذا العهد ، كان يوجد رجل عظيم وبطل صنديد يعرف بـ « سام بن نريمان » ، رزقه الله ولداً كالقمر إضاءةً من جارية كانت في خدمته . لكنه لشعره الأبيض ، أخذه والده إلى جبل البرز في أرض الهند وتركه هناك .

ولما كانت رحمة الله واسعة ، وحبه لخلقه لا يحده حد.

فقد أنزل شفقة في قلب عنقاء كانت هناك . فنشأ وترعرع بين أفراخ العنقاء إلى أن كبر ورأته القوافل المـــارة من ذلك الجبل . فتعجّبوا لما رأوا ، وبلغت تعجباتهم أسماع سام الذي كان قد رأى في منــامه رسولاً أبلغه أن ولده ما زال حيّــاً في الجبل الذي تركه فيه . فتوجه مع الناظرين باكياً مسترحماً ، مستغفراً تائباً ، سائلاً الله أن يرد عليه ابنه . فلما علمت العنقاء بالبحث الجاري عن دستان ، وهو الاسم الذي أطلقته على الرضيع ، أعطته ريشة من جسدها طالبة منه أن يحرقها إذا شعر بأي أمر محدق فيه ، فتمتثل بين يديه . ثم حملته بين جناحيها وطارت به وسلّمته إلى والده . فلما رآه ، بُهر بسناء وجهه وطول قده . فسجد شاكراً الله على صنيعه وكرمه ، وردّ ولده . وتوجه بدعائه الى العنقاء على فعلتها السمحة . ونزل مع ولده من قمة الجبل إلى أسفل السهل . فلما نظرهما الجنود، هللوا هازجين وبالبشائر معلنين إلى أن وصل الخبر إلى منوجهر ، فأرسل ولده نوذر للسؤال عن الحـــال ، ومصاحبته في الحل والارتحال . فلما وصل استقبله سام أجمل استقبال ، ورجع معه بصحبة دستان الى حضرة ملك الزمان . وعندما وصلوا استقبلهم منوجهر بشخصه ، وأنزلهم بنفسه أحسن منزلة . وأمر بإدخـــال دستان عليه . فلما دخل ، بدا كالشمس

الباهرة بين النجوم الزاهرة ، وقد رصّع نفسه باللآلىء والجواهر مما زاد شمائله ومخايله بهاءً ورونقاً . ففرح منوجهر بلقائه . وخصّه بنفسه ، وأمر المنجّمين بالاطلاع على أحواله . فبشروه بمستقبل زاهر وعز سائد . وأرسله مع والده لتولي أمر ممالكه الواسعة ، طالباً من سام استخلاص مملكة مازندان التي استولى عليها بعض الرجال المارقين . فذهب لتنفيذ أوامر ملكه ودعا بابنه مكانه . وأمرَ الوزراء والنصحاء بتحريضه على مكارم السير وتأديبه بمحاسن الشّيم.

ثم إنه في ذات يوم ذهب للصيد قرب أراضي كابل التي تحت إمرة ملك شاب يُسمى مهراب . فلمّا سمع به الملك، رحّب به أجمل ترحيب . فأعجب به دستان لما له من حسن الوجه وطول القامة ، وأبهة الجلال والمنظر ، وعذوبة المنطق . وأخبروه بأن له بنتاً كالشمس الشارقة ، ووصفوها، فاستهام في حبها دون رؤيتها . وبعدما انقضى النهار ، ذهب مهراب لزيارة دستان . فأكرمه وأحسن وفادته ، وطلب مهراب منه أن يتكرم بزيارته ، فلما أبى معتذراً بطلب الإذن من الوالد ، رجع إلى قصره وجلس مع زوجته وبنته روذابة، محدّثاً إياهما عن شعر دستان الأبيض المنسدل على عارضيه كأوراق الاقحوان على شقائق النعمان . فكأنه لا يصلح لحمرة وجهه غير بياض شعره ، ولا لبياض

شعره غير حمرة خده . فهامت به روذابة حباً ، وصدق فيها القول صدقاً ، حين قال : «لا تصفوا محاسن الرجال لربات الحجال » . وأصبحت تُصبح وتُمسي بذكر اسمه. ولما لم تتمكن من إخفاء لواعج حبهـا ومكامن قلبها ، باحت بسرها الى جوارٍ عندها ، فنصحوها بالصبر والتأني ليرين ما يتدبرن بأمرها . ثم ذهبْنَ للحـال إلى معسكر دستان ، وأخذن يقطفن الورد والريحـان . حتى رآهُنَّ دستان . فسأل عن أحوالهن ، فأجيب بأنهن خرجن من قصر الملك مهراب . فأخذ قوسه وسهامه ، واصطاد طيراً من الطيور ، فوقع بجانبهن . ولما ذهب غلامه لجلب الطير سألنه عن ذلك الصائد الشـاب ، فعرفن منه أنه دستان صاحب الطلعة البهيـة ، وابن سام ملك الهند والجوار . فلما أخذ في وصف سيده ، أخبرنه مجـاوبين عن حُسن روذابة ، فما كان من دستان عندما سمع باسمها، إلاّ أن حمّلهن الجواهر النفيسة ، باثاً لواعج حبه ومخابيء قلبه في أذن واحدة منهن ، ترددت فيما بعد على العاشقين حتى تواعدا على الاجتماع . وفي ظلام ليلة داكنـة ، اجتمع الشمس والقمر وطال بينهما الحديث والسمر . ولما أصبحا ، افترقا وتواعدا على اللقاء كلما سنحت الفُرص . فلما طالت بهما الحال ، قرر دستان الزواج من روذابة ، فأرسل في طلب

الكهّان والعلماء ، وأخبرهم بما قرر . فنصحوه صبراً لأن الملك منوجهر وسام بن نريمان لن يرضيا بمصاهرة أنساب الضحّاك لما بين الاسرتين من تنافر وعداء . فقرر مراسلة والده مُتضرّعاً اليه ، مسترحماً إياه ، مذكراً بوعوده يوم عثوره عليه .

كُتِبَت الرسالة وَضُمِّخَت بالكافور ، وأرسِلَت مع رسول الى مقر سام في مملكة مازندان . فلما قرأها هاج وماج ، ثم أخذه الوجوم وتناوبته الهموم . وأخذ يفكر بما هو فاعل لاسترضاء الملك منوجهر . فجمع الحكماء والمنجّمين ، وتركهم مجتمعين علّهم يداونه على الحل السعيد. فلما انتهوا ، سُروا بما أطلعتهم عليه النجوم ، والدلائل التي بدأت تحوم . وأخبروا سام أن المصاهرة ممكنة والزواج المستعصي سيتم ويولد منهما ولد يملأ الدنيا مهابة وقهراً ، وشهامة وفخراً ، ويرفع تاج السلطان الى أوج العمران ، وأنه سيشتهر والأسماع به ستفتخر . فلما سمع سام ذلك ، فرح بما أخبر وأرسل الرسول لإبلاغ دستان بالموافقة . وتوجّه الى حضرة السلطان لاستئذانه في إنشاء هذه المصاهرة.

وصل الرسول الى دستان وأعلمه بالموافقة . ومن شدة فرحه أرسل عجوزاً إلى روذابة كانت تتردد بينهما .

فأعلمتها بالخبر اليقين والقصد المبين . فتهللت مَرحاً ورقصت فرحاً وأهدت العجوز عباءة من القصب منسوجة بالذهب . فخرجت بها فرحة،ورأتها «سين دخت» والدة روذابة ، فارتابت بأمرها ، فحبستها وأقرتها وعلمت بما كان بين دستان وروذابة . ثم ذهبت وأنَّبت ابنتها ؛ ففضحت الأخرى نفسها وأعلمتها بما تكنه في قلبها من حب لزال (دستان) بن سام ، وموافقة هذا الأخير على زواج ولده بابنة مهراب . فهدأت قليلاً حتى التقت الملك مهراب الذي أخذ يسائلها عن تغير حالها ، وإبانة آمالها . فأخبرته بما عرفت . فغضب كالنار الساعرة ، لكنها نصحته وبخبر الموافقة هدّأته ، فاستكان قليلاً ، ومال الى معاودة الاتصال بين الدولتين .

غضب منوجهر عندما علم بأخبار ابن سام . فجمع القواد والوزراء وأفضى اليهم بخوفه من هذا الزواج الذي قد يثمر عن ولد يشابه الضحّاك بطشاً وجوراً . فامتنع عن الموافقة، ورفض المصاهرة . ولما وصل سام الى حضرته تلقاه بالإعظام والإجلال وكل الإكرام ، وأمضيا ليلتهما بالحديث عن المصاعب التي لاقاها سام في إخضاع مملكة مازندان . وانتقلا فيها بعد من مجلس الى آخر ، ومن كاس خمر الى مجلس دن حتى أطاحت الخمر برأسيهما فناما نوماً طويلاً . فلما

أصبح سام ، دخل على منوجهر ، الذي استبقه بالحديث وأمره بأن يتجه الى مهراب ويقتله ويضم ممالكه الى بلاد إيران . فسكت ولم ينبس ، وغادر وهو يعبس . وخرج متوجهاً الى الهند . فتناقلت الأخبـــار مجيئـه ، ووصلت أسماعها الى مهراب وزال ، الذي لام نفسه لإشعـــال نار الفتنة ، وإيقاد الثورة الميتة . وصمم على نفسه ، أن يصل والده الى رأسه ، إن أراد هذا الأخير محـــاربة مهراب . فلما التقيـــا ، تصافحا وتعانقا ، وبثا لوع شوقهما . فلانَ قلب الوالد وتريث قليلاً في الأمر الذي جاءَ من أجله . ونصح ولده بالتوجه الى منوجهر محمّلاً إياه رسالة ، ذاكراً فيها أيام سَعدِه وهناء حيـــاته ، مذكِّراً منوجهر بمقاماته المشهورة ووقائعه المذكورة طالباً منه الرحمة والموافقة لطلب ولده العاشق .

شاع في بلاد كابل تصميم منوجهر على الحرب والهَدم. فدخل مهراب يوماً على زوجته ، يؤنبها على فعلة ابنتها الشنعاء ، مُصمماً على قتلها حتى يكف منوجهر عن غلوائه ويمسك عن محاربته . فهدّأته بالحيلة واقترحت عليه إرسالها مع الهدايا الفاخرة والنفائس الباهرة الى سام علّها تأخـــذ منه وعداً يُهدىء روعه ويكف حَربه . فارتحلت بما خفّ

حمله وغلا ثمنه بعد أن أخذت وعداً من زوجها بعدم التعرض لحياة ابنتها . فلما وصلت ، دخلت على صاحب العز سام وقدمت له هداياها . فأعجب بها لكنه تأنى في قبولها ، لأنه إن قبلهـــا غضب منوجهر ظاناً أنه صالح مهراب . وإن لم يقبلهـــا خسر وعده لولده ، فيطير صوابه ويزهق حيـــاته . لذلك قَبلها على أساس أنها هدية لدستان . ثم سمع المرأة التي طلبت منه الصفح والغفران وسألته التروي والأمان فالشعب واحد على ما بينهما من اختلاف في الدين. فهم يعبدون التماثيل والأصنام ، وشعب منوجهر يعبد الشمس والنيران . ولا يصح أن يؤخذ الصالح في عدى الطالح . وإن نسل الضحّـــاك لا يكون شراً كله . لذلك طلبت الأمان لزوجها الذي لم يسلك منذ تصدّى لسلطنة كابل غير طريق طاعته .

أعجب سام بالمرأة الكابلية وأعطاها الأمان بعد السؤال عن الأحوال ، فأخبرته بأنها صاحبة مهراب ووالدة روذابة التي من فرط جمالها وقع دستان في حبائل حبها .

أما سام فأخبرها بدوره من أن الميثاق ما زال قائماً ، وَوعدَه بالأمان لمهراب ما زال جارياً . وأنه بعث ولده إلى الملك منوجهر سائلاً إيـــاه العطف ، وأنه يظن أن

منوجهر سينفّذ رغباته وأنه (أي سام) لا يمانع في مصاهرة من كان مثل مهراب قدوة ومنزلة . َفسُرَّت المرأة بما سمعت ، ورجعت للتحضير للعرس الميمون ، وطمأنت مهراب بثبات ملكه ودوام ِعزه .

أما « زال » الذي وصل إلى حضرة منوجهر ، فاستقبل بالترحاب ، ونزل على مضيفه كنزول المطر من الغمام ، والحقيقة من الأحلام . وسلّم منوجهر كتاب والده فقرأه ووعده خيراً ، ثم ذهبا للشراب ، فدارت الكؤوس مريحة النفوس . فثمل دستان ونام . ولما أصبح ذهب إلى حضرة منوجهر ليتصبح ، الذي كان قد أمر العلماء والمنجمين بكشف مستقبل دستان العظيم . فلما اجتمعوا وتشاوروا ، أخبروه كما أخْبِرَ سام من قبله ، فانشرح صدره وأراح نفسه ، وأراد أن يمتحن دستان ، فأحضر كل عالم كان بحضرته وأمر ابن سام للتهيؤ وحل الألغاز والطلاسم . فحضر وبدأت الأسئلة تنهمر عليه كالمطر . فسأله واحد عن ثلاثين فارساً يعرضون على السلطان ، إذا عبروا نقص منهم واحد ، وإذا رجعوا فلا ناقص ولا زائد . وسأله ثانٍ عن فرسين ، أحدهما أشقر كالنار والآخر أدهم كالقار ، لا يزالان يتراكضان ، يتعاقبان

ولا يتسابقان . وسأله ثالث عن روضة معشبة تروق للعيون بهجة . فإذا نزل عليها منجل جمع بين اليابس والرطب . وسأله رابــع وخامس وسادس .... أما هو فأخذ يفكّر وللأمر يدّبر حتى قال : « للأول ، إنه الشهر فتــارة يكون تسعاً وعشرين ، وتارة ثلاثين . وللثاني ، إنهما الملوّان يتعاقبان ولا يتسابقان . وللثالث ، إنه الأجل يحصدنا كحصد النبات فيأتي على البنين والبنات من الشيب والشبّان والفروع والاغصان . وللرابع .... » فلما انتهى ، أقرّوا له بالعلم الواسع والمستقبل اللامع . ثم أراد الذهاب إلى أبيه سام ، فطلب الملك منه أن يبيت عنده ليرى شجاعته في منــازلة الفرسان ، فبقي ملبّيــاً دعوته . فلما نازل الفُرسان وقتل منهم أشجع الشجعان ، خلع عليه منوجهر خلعة مُضافة إلى التــاج والعرش ، والخيول العتيقة والغلمان الرشيقة . وأخبره بموافقته على الزواج السعيد . فلم يصدق ما سمــع وللرسول هرع طالباً منه إخبار والده قبل مجيئه عن رضى الملك . فذهب الرسول إلى سام ، وبدوره أخبر مهراب الذي فرح وهلل وللأمر تهيــأ . وأخبر سينُدخت التي بدورها أخبرت روذابة ، وأمرت بتزيين الدور والقصور ، ونثرت اللؤلؤ والمرجان ، واستعدت مع المستعدين لاستقبال القادمين،الذين ما إن وصلوا ، وبالقصر استقروا حتى عقدوا

الزواج في ليلة زاهرة لم تعرف الأخبار مثلها ، لا في جلال روعتها ، ولا في بُهرج رونقها ، وكثرة كرمها .

حملت روذابة ، وقاست آلاماً مبرحة في فترة حملها. فلما دنا وقت الوضع ، غشي عليها من شدة الألم ، وأخذت والدتها تصيح وتصرخ حتى حضر « زال » ورأى أمر زوجته . فأخذ مفكراً وللأمر مدبراً . فقدح فكره بريشة العنقاء، فأخذها وحرقها وللحال حضرت ، وتنبأت للمولود الجديد، وأشارت عليهم بإسكار المرأة ، وبشق بطنها وإخراج ولدها. ثم أمرتهم بتخييط الشق وبرتق الفتق ، وذهبت بعد أن أعطت دستان ريشة أخرى عوضاً عن التي أحرقها .

أمر دستان بأحذق الصناع ، فجاء وفعل ما أمرت به العنقاء ، فإذا بالمولود صبياً قد صوّره الله على خلقة تعجب العيون وتروق القلوب .

أما والدته فقد ظلّ مغشياً عليها نهار وليلة ، وعندما استفاقت ورأت وليدها كأنه ابن عشر سنين ، قالت : « برُستَم » ، أي قد خلصت ، فسمي الصبي « رُستَم » .

تناقلت الأخبار أحوال رستم الذي كان يرضع من حليب عشر مرضعات، فلما بلغ ثماني سنوات، صار كالنخل الباسق والصخر الشاهق . وكان لا يحمله مركوب غير

الفيل لضخامة جثته وقوة أكتافه . وظلَّ يترعرع حتى راهق وبلغ . وبقيت أخبار قوته تطغى على سائر الأخبار ، ومرة قتل فيلاً أبيضَ كان لوالده ، عندما هاج وقطع سلاسله ، فلم يستطع أحد أن يقف بوجهه إلا رُستم ، الذي أخذ سيف جده سام ، وخرج إلى الفيل وضربه على رأسه فقضى عليه . وهاجم أيضاً قلعة شاهقة على الجبل الأبيض ، كان أجداده قد حاولوا دخولها فلم يتمكنوا. أما هو فقد دخلها متنكراً بزي تاجر ملح ، لندرة الملح فيها . فلما هبط الليل ، ثار في القلعة ، وقتل أهلها وعثر على كنز عظيم ، فأرسله إلى والده على ظهر آلاف من الإبل .

سُرَّ سام بأخبار حفيده ، وأحبَّ أن يراه . فرحل إلى مكانه ، مع أنفس الهدايا الموجودة في زمانه . فلما وصل دُهِشَ من رؤية رستم الذي جُعِلَ على صورة تشبهه ، وبالفضائل امتحنه . فكان نِعمَ ولد لأفضل ابن. وظلَّ يتباهى بِحَمْلِهِ ومولده شاكراً العنقاء على صنيعها العظيم . ثم أقام مع أهله مدة حتى عزم على الرحيل ، فارتحل بعد أن أوصى ولده بأحسن الفضائل وأجمل الشمائل.

عَمَّرَ منوجهر في السن . فلما أناف على مائة وعشرين

سنة دنت وفاته كما أعلمه المنجمون ، فطلب ولده نوذر ورجـــاه ألا يتجبَّر ، إن هو حكم وعلى العرش استلم . ونصحه بألا يحيد عن طـــاعة النبي الجديد (موسى) الذي سيظهر بناحية المغرب . وأمره بالصبر إن حكمه ملك الترك ابن َبشنَل الذي سيغزو البـــلاد فلا يبقي ولا يذر . وإن استصعب فعليه بزال وولده رستم الذي سيدوّخ بلاد الترك ويفتك بالعباد انتقاماً له . ولما انتهى منوجهر من نصائحه ، مات بعد أن حكم مائة وعشرين سنة .

٥

الأيـــام العصيبة

استلم نوذر مُلك أبيه ، فاضطرب عهده ، لأنه حكم وظلم وبنصائح والده ما عمل . فكتب الى سام مستعيناً به ، فما ان جاء حتّى تغيرت الأمور ورجعت الى ما كانت عليه من قبل في عهد منوجهر .

في هذه الأثناء تناقلت الأخبار موت منوجهر واضطراب حكم ولده ، الى أن بلغت آذان بشنك ملك الترك ، فرغب في الاستيلاء على ممالك نوذر . فدعا قواده وأعوانه مستشيراً بالأمر ، مؤلفاً جيشاً بقيادة ولده افراسياب وبطل دولته ، طالباً منه الانتقام لقتلة تور وسلم . أما ولده الثاني أغريرث فنصح والده متمهلاً وبالتاريخ وقواد جيش نوذر ، قارن

وكشتاسب معتبراً ، سارداً أخبار بطولات سام بن نريمان حـــامي نوذر وساعده عند اشتداد الخطوب . لكن الوالد عنّفه وأنّبه مُتهماً إياه بالجبن لأنـه تقاعس مثل غيره عن الثأر لدم أجداده .

وعندما أقبل الربيع ، تقدم بجيش ضخم العدد نحـــو جيحون . فعلم نوذر بذلك وتقدم بدوره الى دهستان على رأس جيش بلغ مائة وأربعين ألف فارس يقوده هو وقارن. فلما وصل افراسياب وضرب طوقاً بأربعمائة ألف فارس حول نوذر وجنده ، بلغه خبر موت سام وانشغال ابنه بعزائه . فأدرك أن الأمر بيديه ، وأن نوذر هالك لا محالة . وكان له بباب دهستان رجلاً قوياً يُدعى بارمان طلب منـــازلة أحد قوّاد نوذر . فلما استطلع قارن أحـــوال جيشه ، لم يتقدم أحد لمنازلته إلا شقيقه قُباذ . فاستمهله قارن لِكِبَر سنه وعلو شأنه عند الملك ، لكنه لم يرتدع ونزل للمبارزة. فأخذا يتضاربان ويتطاعنان طول اليوم حتى وقع قُباذ عن فرسه منكوساً . فاحتدم قـارن لرؤية أخيـه ميتاً . وهجم بجيشه طالباً الثأر إلى أن غربت الشمس ، فرجع الى نوذر وأطلعه عن سوء الأخبار ، فما كان مـــن الأخير إلاّ أن شن الحرب برجاله ، وأمر ولديه طوس وكُستَهم بالهروب

الى جبل راوه من جبال البرز ، علّهما ينجوان ومن آل أفريدون يبقيان . وظلّ يحارب افراسياب حتى آذنت شمس دولته بالمغيب ، ونساء مُلكه بدأن النحيب . ثم قسَّم جيشه الى قــلب وميسنة وميسرة . فتداخلت الأقسام وتلاطمت كالأمواج . وقُتِل سابور رئيس القسم الأيسر مـن جيش نوذر ، ولحق قــارن بكروخان بن ويسه رئيس جيش افراسياب لما علِمَ بهجومه على نساء الايرانية سابياً إياهم ، خذاً خزائنهم وأموالهم ، وأخذ يتقاتل مع بارمان قاتــل أخيه حتى صرعه وعن فرقته خلعه . فتفرقت جموعه وانهزم أصحابه ومضى هو الى فارس .

لما سمع نوذر بخروج قارن مساعداً نساء الايرانية ، لحقه طالباً النجاة من قبضة افراسياب . فلما علم هــذا الأخير بهروبه ، ركض وراءه طالباً دماءه ، فقبض عليه مــع ألف ومائتين من أعيان الايرانية ووجوه قوادهم المذكورين. وأمر ويسه قائــد جيشه بلحاق قارن الى فارس . فلحقه وعلى الطريق نازله بعد أن كان قارن قد قتل ولده وجمعاً عظيما من جنود الترك . وتحارب الفريقان وزحف بعضهما الى بعض ، وجرت بينهما ملحمة عظيمة انتصر فيها قارن. وأجبِرَ ويسه على الفرار .

علم افراسياب بالخبر الفاشل ، فأمر شماساس وخزيران بالاتجاه نحو زاولستان ، فسارا ووصلا هيرمند عن طريق سجستان وكان «زال» قد رحل منها الى كورابذ لعزاء أبيه سام ، ولم يبقَ فيها غـير مهراب . فاتصل بهما مذكّراً إياهما أنه من نسل الضحّاك وأنه إن قبل بمصاهرة «زال» فحفاظاً على مُلكه وأيام حُكمه . فآمن جانبهما ، ثم أرسل رسولاً إلى «زال» يدعوه الاستعجال مُعلِماً إياه بالحيلة التي اتبعها . ففرح هـذا الأخير بعزم مهراب المثير ، وتوجّه مع جيشه مباغتاً شماساس وخزيران ، ففطنا للحيلة واضطربا تدبيراً . ثم تلاقت الجيوش كالسيل الجارف ، ولحق «زال» بخزيران فضربه ضربة ، خرّ منها صريعاً لليدين وللفم ، مُعَفَّراً في التراب ، مضرّجاً بالدماء . فلما رأى شماساس ما حلّ بصديقه ، هرول هارباً ، ومن المعركة جارياً . وفي طريق عودته الى افراسياب التقى قارن راجعاً من محاربة ويسه . فتحاربا كالنسور الكاسرة ، وتمكن شماساس من الهرب إلى افراسياب .

عرف أفراسياب بالهزيمة النكراء وبقتل قوّاده الأعزاء ، فأمر بنوذر وقطع رأسه فخلّت ممالك ايران عن صاحب العرش والتاج . وأمر أيضاً بالأعوان ، فأطلقوا ألسنتهم

بطلب الأمان وأراد أن يقتلهم فتشفع إغريرث لهم ، طالباً البقاء على أرواحهم ، فأجيب طلبه وذهبوا معه الى سارى. أما افراسياب فرحل من دهستان متوجهاً إلى الري .

توجه ولدا نوذر الى «زال» ، شاكيَين باكيَين وعلى الثأر مُصرّين . وظلا وراء «زال» ، حتّى هيأ نفسه بجيش عظيم، مقسماً عـلى الانتصار ، مرجعاً ممالك إيران الى أصحابها الشرعيين . فلما بلغ الخبر الى الأمراء المأسورين عند اغريرث، اجتمعوا بـه طالبين فكَّ أسرهم ، لأنه لو لم يفعل ذلك فإن زال سيفعله بدون شك ، تنفيذاً لما صمم عليه . لكن اغريرث استمهلهم ، وعلى طريق الصواب دلّهم . فهو إن فعل ذلك ، فسيظهر على انه شقّ طاعة افراسياب ، وعن ملكه حاد . لذلك أخبرهم بأن دستان لو اقترب من سارى فسيذهب الى افراسياب ويتركهم فيها ليلتحقوا بجيش دستان . فلما علموا بذلك أرسلوا رسولاً الى «زال» يعلمونه بما قرر عليه اغريرث . ففرح للخطة وأوكل كشواذ تنفيذ المهمـة ، فاستولى عـلى سارى وأخرج جميع الأسارى ، ورجعوا عائدين الى زاولستان .

أما افراسياب ، فلما علم بقدوم اغريرث وتركه المدينة، استلّ سيفه وقتله ، وقام طالباً «زال» ، فالتقى بجيشه في

جوار الري . فتقــاتلا وتطاحنا سحابــة كل يوم مقدار اسبوعين، دون أن ينتصرا . ولما كان ولدا نوذر لا يصلحان لحكم الممالك الواسعة والأراضي الشاسعة، اختار «زال» زوّ بن طهماسب لما كان عليه من قدر وجلالة وشهامة وصرامة ، فتُوِّجَ على ممالك ايران والفريقان ما زالا يتخاصمان . فحكم الرعية بالعدل والهيبة ، وكفّ يد الظلم وساس بالحِلم ، ووقع في عهده قحط عظيم ، فانحبست السماء وماتت النباتات فقلّ الطعام حتى صار يُقابل بالدراهم .

ضَعُفَ الفريقان وهما ما زالا يتطاحنان ، فسعى القادة للصلح ، علّ قحطهم يزول ، وبأمر الله تعالى يسعون . فتهادنوا وتصالحوا وقسّموا الأرض بينهم . فأخذ افراسياب من روزابد وشير إلى منتهى الصين والخُتّن ، ومن الجانب الآخر لزو وشعبه . وتعاهدوا ألا يقتربوا من بعض ، ولا يرجعوا للحرب . فزال القحط وأثمرت الأشجار وأخصبت المزارع واعشوشبت المراتع .

شَغر عرش إيران بعد موت زوّ ، فانتهز افراسياب الفرصة ، وقرر معـاودة الهجوم بأمر من أبيــه بَشنك . فحضّر جيشاً ترتج بــه الأرض ويتضايق دون كثرته البر والبحر وعبر بهم جيحون . فلما بلغت أخباره «زال» ، استدعى

ولده رُستَم وسلّمه محاربة افراسياب . فلما أراد أن يرتحل ومن عدوه ينتصر ، أمر بإحضار حصان له كالبحر المائج والفيل الهائج . ولمــا لم يجد بين خيول زابلستان خيــلاً يستطيع أن يتحمل قوة كفه ، اختار فرساً شهباء من خيول كابل يُدعى رخش . فسرَّ بذلك وخرج في الربيع لمنازلة افراسياب . فلما اقتربا من بعض ، بقيا على بُعد فرسخين لا يتقدمــان ولا يتقاتلان . في هذه الأثنــاء أراد زال أن ينظّم ممالك ايران بعد موت زوّ . فأُشير عليه بانتقاء كيقباذ من شجرة افريدون . فـأمر ولده بالذهاب اليه ، مُنبئــاً إياه بالخبر العظيم .

جَلسَ كيقباذ على عرش من عاج معتصبــاً بالتاج . وهيــأ جيشاً عظيماً لمحاربــة افراسياب . فكان مهراب في أحــد الجانبين ، وكزدَهم في الجــانب الآخر ، وقارن وكشواذ في القلب ، وهو مع «زال» في الخلف . وأخـذ رستم يحور ويدور سائلاً والده عن وصف افراسياب لينازله لوحده . فلما رآه في الجمع واقفــاً ، وثب عليـه كالليث المصور يريد قتله . فاصطف الجيش من حوله وحموه منه . ثم اشتبك الجيشان وذهب من التورانيين جمع عظيم فهرب افراسياب إلى والده بَشنك ناصحاً إياه بوقف الحرب وطلب

السلم ، سائلاً العفو والصفح في قتل أخيه اغريرث . فامتثل
الوالد لنصيحة ولده،وأرسل رسولاً إلى كيقباذ،طالباً السلام،
مُعلناً وقف الحرب ، مقترحاً اتخاذ جيحون حاجزاً بين
المملكتين ، فما وراءه للثورانية ، كما كان في عهد ايرج،
وما هو من جانبه الآخر للايرانية . فوافق كيقباذ ، وهدّأ
من روع رُستم الذي أراد مُتابعة القتال ، وجعله حاكماً
على ممالك زابلستان إلى بحر السند ، وكافأ جميع الملوك
بنفائس الخلع وطرائف التُّحف . ولما قضى على حكمه
مدة ، رجع الأمن والأمان وانتشر العدل والاحسان ،
وعمّ الرخاء كل شعبه . وكان له أربعة بنين ، كيكاوس
وكيآرِش وكينشين وكيأرِشن . ولما بلغ مائة سنة ،
خطفته المنية تاركاً الحكم إلى أكبر أولاده كيكاوس .

جلسَ كيكاوس مكان أبيه والناس في ظل حكمه
آمنين . وكان عهده من أشهر عهود ملوك الفرس ازدهاراً
وعدلاً ورخاءً . مرة، دخل عليه مغنٍّ من مملكة مازندان،
وأخذ يتغنى بربيعها الدائم وحسن بناتها الحالم ، فأشرقت
نفس الملك وأحب أن يمتلكها ويستولي عليها . ولما كانت
مملكة مازندان موطن الجن والسحَرة الذين لا يرحمون
وبالملوك يفتكون . أطاعه أعوانه وقواده وفي نفوسهم ريبة

وخشية من هـذه المغامرة ، لكنهم لم يفاتحوه وأرسلوا في طلب زال بن سام . فجاء ونصح الملك عن رغبته الممنوعة، لكنه لم ينتصح ، وبدأت نواياه تتضح عندما سَلَّمَ المُلك إلى ميلاذ وتوجّــه على رأس جيش عظيم إلى مازندان . فلما وصل أمَرَ قواده بقتل كل كائن حي يقف أمامهم . فامتثلوا لأوامره وقتلوا كثيراً .

وصلت أخبار القتل والذبح الى ملك مازندان فاستنجد بملك الجن سبيذريو الذي لبى استنجاده وأعمى كيكاوس وأغرقــه مع جنوده في ظلام حالك وليل دائم ، وأمر شياطينه بنهب أموالهـــم وخزائنهم وإرسالها الى ملك مملكة مازندان .

ندم كيكاوس عـلى فعلته الشنيعة ، وأرسل مستغيثاً في طلب «زال» . فلبّى هذا الأخير نداءَه وأرسل اليه ولده رستَم على ظهر حصانه رَخش ناصحاً إيـــاه اتباع الطريق القصيرة الملأى بالشياطين والسباع والضباع لأنها أقصر مـن غيرها . فنهض رستَم يطوي عنان الصحراء وحيداً ، وعلى الطريق تبدت له مخاطر عديدة كـان يتغلب عليها بمساعدة حصانه رَخش ، فقتل السبع الهارب ، والثعبان الهائل ، والساحرة الشمطاء ، حتّى وصل أراضي الملك أولاذ ، وأخذ

يرعى حصانه . فلما رآه هذا الأخير دنا منه يريد قتله ، فقبض رستم عليه وقيّده ، وعن مكان كيكاوس والشياطين أراد دلّه ، وظلّ ممسكاً به حتى وصلا باب مملكة مازندان المحروس بفلول الجن والشياطين . فنزل قتلاً وتذبيحاً حتى قضى على ارزنك قائد ملك الجن ، ثم توجه الى مكـــان كيكاوس الذي أرشده على مغارة سبيذريو ملك الجن .

قَطَعَ رستم سبعة جبـــال شواهق مرصودة ومحروسة بالعفاريت ، فوصل بعد قطعها الى باب مغارة ملك الجن. وعرف من اولاذ المقيّد بأن الجن يتركون باب المغارة إذا ارتفعت الشمس وازداد لهبها . فاقتحم المغارة المسحورة ، وفتك بالرقاب الممدودة حتى وصل الى قعرها حيث سرير سبيذريو . فنازله وقاتله وعن سريره أزاحه ، فشقّ بطنه وأخذ كبده طائراً به الى كيكاوس الذي ما إن مسح نظره بدمه حتى رُدَّت اليه نضارة الحياة . ثم نزلا نهباً وقتلاً وحرقاً في مملكة مازندان وقررا مكاتبة ملكها ليعلن طاعته الى كيكاوس ، فأرسلا اليه فرهـاد الذي طلب منه إعلان طـــاعته وضم ملكه الى مملكة ايران ، ودَفْع الجزية والخراج . لكنه رفض متسلحاً بالجن والسحرة والفيلة التي ليست لكيكاوس مثلها .

غَضِبَ كيكاوس من تهديدات ملك مازندان فنصحه رستم بالتروي وأخذ الأمور بالهدوء الكلي ، وأرسل نفسه رسولاً ثانياً ، مظهراً شجاعته أمام عسكر وجن ملك مازندان ، لكن الملك عاود رفض الطلب مما أغضب رستم فقفل راجعاً مهدداً منذراً بشن الحرب والاستيلاء على مملكة مازندان .

اشتعلت الحرب بين الملكين ، ونازل رستم جوبان أحد فرسان ملك مازندان فصرعه برمح دخل كتفه وخرج من رقبته . واشتد القتال بعد موت جوبان فارتجت الأرض من الجحافل وأضاءت السيوف ، الليالي الظوالم ، وسُمع صليلها كأنه رعد مخيف أو زلزال عنيف . ومضى الأسبوع الأول وهم ما زالوا يتحاربون وعن قوتهم لا يضعفون حتى نزل رستم وأخذ رمحه وطعن ملك مازندان في خاصرته طعنة رمته الى الأرض فحوّل نفسه الى صخرة صماء بعد تلك الطعنة .

حمل رستم تلك الصخرة ، وعلى رجلي كيكاوس وضعها ، وأمر ملك مازندان المختبىء في داخلها أن يخرج منها لئلا تفتتها المعاول وتقطعها قطعاً . فعمل بأمره وخرج مدججاً بالسلاح . فقُبِض عليه وقُتِل .

أما كيكاوس فأمر بقتل المردة من الجن وذهب الى مكان العبادة مختلياً بربه شاكراً إياه على الفتح المبين والنصر العزيز . ولما انتهى بعد أسبوعين ، شارك رستم في المأكل والمشرب ووعده بتسليم مملكة مازندان لأولاذ الذي كان مفتاح هذه الفتوح كلها . ولما عاد إلى فارس ، فتح الخزائن ، ووضع ديوان الأرزاق ورتّب له كتّاباً وعمّالاً .

ووهب رستم بالإضافة إلى الحُلى والجواهر والهدايا ممالك نيم روز أو زابلستان ، واستمر في حكمه في أمن واطمئنان إلى أن ظهر له ثائر من العرب يُدعى دُربيس من نواحي الشام ومصر ، يدّعي الحكم لنفسه ويخرج عن طاعته . فقام اليه قاصداً بلاد الترك والصين حتّى وصل إلى نواحي البربر يريد احتلالها ، فصدّه ملكها والتحما في حرب عظيمة كان النصر فيها حليف كيكاوس بعد مساعدة أحد قواده المسمّى جوذرز . فلما استولى عليها وأذعن أهلها لحكمه وطاعته ، قصد ضيافة رستم بن دستان في زابلستان . فنزل في ضيافته شهراً من الزمان قضاه باللهو والطرب والصيد والطرد . ثم ترك نيم روز راكباً البحر في جميع عساكره بقوارب تفوق العد والحصر ، وسار طويلاً حتّى وصل إلى مدينة تُدعى هاماوران وفي كل صوب منها عسكر

عظيم ، فمن يسارها مصر ، ومن يمينها البربر وقدامها البحر . فتقابلوا وتلاحموا حتى أيقن ملك هاماوران أنه لا سبيل لغلبة الإيرانيين فقبل الصلح وطلب الأمان .

وكان لملك هاماوران بنتاً ، تفوق الحسن والكمال وصفاً تُدعى سوذابة . فلما عرف كيكاوس بها ، أرسل رسولاً يخطبها وإلى داره ينسبُها . فاستشارها والدها ، فقبلت بعد تردد إذ أن لا مفر من الرضوخ إلى أمر كيكاوس . فجهّزها والدها وأرسلها ، ثم بعث يسأل كيكاوس أن ينزل في ضيافته .

نصحت سوذابة زوجها بعدم الذهاب لئلا تصير المأدبة مندبة . لكن كيكاوس ذهب وفي ضيافة عمه بقي ردحاً من الزمن . وفي ليلة هاجمه جنود البربر بمعاونة عمه ، فقبضوا عليه وسجنوه في قلعة حصينة .

عرفت سوذابة بمكيدة أبيها ، فلطمت وندبت ومع زوجها وُضِعَت بعد أن رفضت العودة إلى دار والدها . فخلا بذلك عرش إيران من السلطان ، فاحتله افراسياب بعد حرب مع العرب .

عَلِمَ رستم بما آل اليه أمر إيران ، فأرسل رسولاً

إلى ملك هاماوران ، يحثه على إطلاق سبيل الملك والرجوع إلى طاعته لكنه رفض واتجه بجيوشه لمحاربة رستم . فأعدّ هذا العُدة ولجنوده استعَدّ . فلما تلاقـا وللحرب نزلا ، ضعفت قوة ملك هاماوران ، فاتصل بملوك الممالك المجاورة (مصر والبربر) طالباً المساعدة للتخلص من أمر رستم . فجاؤوه بجيوش جرارة وأسلحة فتاكة، لم يستطيعوا بها التغلب على رستم . فأسرهم واحداً واحداً وأجبرَ ملك هاماوران على طلب الأمان، وإطلاق كيكاوس ومن كان معه .

كتب كيكاوس بعد الخروج إلى ملك الروم ، يسأله المعاونة في طرد افراسياب من ممالك ايران . فردّ الملك بالموافقة ، وتحت امرته ساقَ آلافاً من الجيوش . فلما علم افراسياب بأمر الهجوم ، تَجَبّر وتَكَبّر ومُلك إيران لنفسه استدعى ، فاشتبك الجيشان في قتال عظيم ، ومن جُند افراسياب قُتِلَ خلقٌ كثير ، مما جعله يهرب إلى توران مقر مُلْكِه ومكان عزه . فعادت ممالك ايران إلى كيكاوس ، فشرع ينظّمها ولأمرائه يسلّمها ، فوضع في كل من مدن خراسان الأربع : مرو ، نيسابور ، بلَخ ، وهراة ، عسكراً قوياً فزالت الفتن وطابت الدنيا واستراح جميع الإنس ما عدا الجن الذين وضعوا في خدمة كيكاوس

فبنوا له في الجبال بيوتاً ، سوّروها بالرخام ، وسمّروها بالفولاذ ، فلما تضايقوا ، في الأمر تشاوروا ، فبعث رئيسهم ابليس جنّياً متنكراً بصورة غلام راوغ عقل الملك بصنع سرير من الذهب يطير بـــه بواسطة العقبـان . فلما طِرْنَ وبالسماء صرنَ ورائحـــة اللحم شممنَ ، هبطنَ بسرعـــة فتدحرجنَ . لكن كيكاوس لم يُصبْ بأذى ، فخجل من سوء فعلته واعتكف عن الناس حتّى تاب اللهُ تعالى عنـــه ورجع إلى سرير ملكه .

ولما كانت للأبطال شهوات . خرج رستم مع سبعة من قواده العظماء في حفلة صيد بأراضي توران مُلك افراسياب، فتنبـــه الأخير إلى وجودهم وخرج اليهم بعسكره قـاصداً أسرهم لمضايقة كيكاوس . فما أن لاقوه حتّى اشتبكوا معه بمعارك ضارية . ونازل الكوس من رجال افراسياب زواره شقيق رستم فضربه ضربة أنزلتـه عن فرسه على مرأى من أخيه ، الذي مـا أن شاهد هذا المنظر حى ثأر له وطعن الكوس طعنة جندلته عن فرسه وأودت بحياته . ثم دارت الدائرة على ملك الترك فهرب راجعـاً بفلول جيشه وجثث قتلاه .

٦

قصة رستم وسهراب وسياوخش

وسهراب هذا ولد رستم من ابنة ملك سمنجان التركي، الذي ما ان علم بمجيء رستم بن دستان الى مملكته بحثاً عن فرسه الذي ضاع منه في رحلة صيد ، حتى أنزلـــه في ضيافته ، طالبــاً منه مبيت ليلته . فلمّا شرب وانتشى ، وبسكرات النوم سها . استيقظ في الليل على صورة بنت تفوق الجمال وصفاً والكمال سحراً ، وعرضت نفسها عليه بعد أن أحبته من الأحاديث التي كانت تسمعها عنه . فقضى ليلته معها . فلما أصبحا ، أعطاها خرزة طالباً منها إن كان مولوده أنثى فالخرزة تربطهـــا على قرونهـــا ، وإن كـان ذكراً فعلى عضده ، ثم رجع الى إيران بعدما استردّ فرسه .

وُلِدَ سهراب على صورة رستم بن دستان أو سام بن نريمان فلما بلغ سنّه الثالثة ، وعن غيره من الخلائق شبّ

خارقاً ، أخبرته والدته بحقيقة مولده ، فقرّر احتلال إيران وتنصيب نفسه ووالده ملكاً عليها ، فسار على سيرة والده في القوة والشجاعة واختار لنفسه فرساً من نسل رَخش . ثم ساق تحت إمرته الآلاف بعدما اتصل بـه افراسياب وحرّضه على الاستيلاء على إيران . فسار حتى وصل الى قلعة سبيذ ، وهي معقل الإيرانيين . فنازل قائدها هجير وشقيقته التي خلصت منه بحيلة ، ثم استولى على القلعة .

عَلِمَ كيكاوس بالخطر القريب ، وفي أمر قائد زابل أرسل يستجيب . فلما وصل رسوله جيو الى رستم ، استمهله ؛ وعن قصده المسرع ردّه . فقام هناك عدة أيام وكيكاوس في قصره على نار . ثم رحلا معاً . فلما وصلا دخلا على كيكاوس ، الذي ما أن علم برجوعهما ، حتى صبّ جام غضبه عليهما ، وأمر برأس رستم عقاباً لتأخرهما . إلا أن أحداً لم يستطع أن يُنَفِّذ أمره ، وأسرعوا كلهم خلف رستم يعتذرون عما بدر من كيكاوس . فرجع إلى حضرة كيكاوس الذي طلب الصفح والمغفرة ، وعن أمره وغضبه سأل معتذراً . ثم جلسوا للصباح في روض معطر بالرياح ، يشربون ويأكلون ، وبالرزق على عبيدهم وخدامهم يفيضون . ثم توجّهوا بمائة ألف إلى جوار قلعة سبيذ .

فلما أمسوا، خيموا هناك، وتسلل رستم إلى معسكر الأتراك، قاصداً رؤية سهراب . فالتقى بأحد رجاله زند الذي ما أن وكزه بيده وكزة حتى مات للحال . ثم استعد الجيشان لبدء القتال ، وأخذ سهراب يسأل اسيره هجير عن أصحاب السرادق الإيرانية ، لعله بسرداق رستم . فأجابه هجير عن كل سؤال ، وعن أحوال رستم صدّ الكلام . فاغتاظ لعدم المعرفة ، ولسرادق كيكاوس خرج مهدماً .

فاستنجد الأخير برستم الذي جاء مسرعاً وللأمر مُدبِّراً، وحضّر نفسه لملاقاة سهراب . فتلاقيا وللمنازلة استعدا ، وظلا يحطّمان سلاحهما غير مدركين بأن الوالد ينازل ولده ، والقلب يمزق أغشيته ، والعين تطفىء نورها . فلما تعبا ، ولم يفز أحدهما ، رجعا إلى مخيمهما واستراحا . ثم رجعا في اليوم التالي يكملان ما قطعاه بالأمس . فلما تقابلا ، تناوشا وتناطحا ، وصرع سهراب رستم وأراد ذبحه ، لكن الأخير استمهله قائلاً : « ليس من شيم الأبطال عندنا أن تقتل عدوك الذي بمنزلتك في أول نصر لك ، لكن يُسمّى بطلاً من نازل عدوه ثانية وانتصر عليه ، آنذاك تكون حياته ملكك ويحق لك قتله وذبحه » .

اغترّ سهراب بكلام رستم فتركه يذهب مُحضّراً نفسه

للمنازلة الثانية . فلما تنازلا ، صرع رستم سهراب واستلّ خنجره ونحر ولده دون أن يدري . ولما رأى خرزته معلقة على عضده ، أدرك انه ولده ، فلطم نادباً وبكى ناحباً . وظلّ على ذلك مدة من الزمن . وتـأخر عن العودة إلى جموع الإيرانيين الذين شدّوا الرحال للاستفسار عن الأحوال ، فشاهدوا ما صار ، ولأمر بطلهم نزلوا للاستفسار . فساعدوه وواسوه وعن أمر سره استفسروه . فطلب من أخيه زواره أن يقصد هومسان قائد عسكر الترك ، ويصحبه إلى بلاده كي لا يتعرض هو وعساكره لأي أذى ، وأرسل جوذرذ إلى الملك كيكاوس ، يسأله شربة من الدواء الذي يجلب الشفاء لأن ابنـه سهراب لم يمت بعـد . لكن كيكارس رفض ، فقام اليه رستم بنفسه . لكن ولده مات وهو على الطريق . فتوجه مع أخيه زواره إلى حضرة أبيه دستان في زابلستان الذي تلقاه مع أهل سجستان . فأقام باكياً وعن فعلته نادماً ، عالماً أن الدموع لن تُرجع عليه ولده .

وفي الناحية الأخرى من المدينة ، كانت هناك أم تلطم خدها ، وتنعي حظها ، وعن ذكر ولدها سهراب لا تنقطع أبداً . وبقيت على ذلك الحال سنة حتّى أتتها المنيّة وطواها الثرى ، وهذا قضاء الله في خلقه ولا مردّ أبداً عن أمره

وُلِدَ سياوخش من جارية حسناء من نسل افريدون ، كانت هـــاربة من ظلم أبيها عندما لاقاها طوس بن نوذر وجيو بن جوذرذ وهما يتصيدان بناحية من نواحي توران، فتنازعا عليها ، واحتكما إلى كيكاوس ، الذي ما أن رآها حتى استأثر بها وإلى حريمه ضمها . فَحمِلَت منه ووضعت ولداً كأنه قمر أو صنم حسناً وجمالاً ، فَسُرَّ به كيكاوس، وأرسله مع رستم لكي يربّيـــه ويعلمه آداب الملوك . فلما شبَّ وكالملوك تبدى ، رحل إلى والده ، فاستقبله بالمواكب ناثراً عليه زهر الكواكب ، وأقعده بجنبه على العرش ، واهباً إياه كل ما لديه من مال وجواهر وكنوز وذخائر . ثم أعطاه التاج في السنة الثامنة من قدومه .

في يوم من الأيام رأتـه سوذابة زوجة والده . فهامت في حبه لما هو عليه من حسن الجمال والكمال . فلما أرادته ومن حبهـــا أظهرته . دخلت على الملك تطلب منه السماح لسياوخش بزيارة أخواته وراء الستر ، لأنهن سمعن عنـــه دون أن يكحّلن عيونهن برؤيته ، فنزل على طلبهـــا ، واستدعى سياوخش طالبـــاً منه زيارة أخواته ، وسوذابة

التي هـي مثل أمـــه . لكنه فطن للحيلة وعرف أنها من تدبير سوذابة ، فتظاهر أن زيارة النساء في غرفهن ليست من آداب وسيرة الملوك . فسُرَّ والده بذلك وأمـــره بأن يزور أخواته ولو لمرة .

في صباح اليوم التالي زار سياوخش أخواته وسوذابة التي هي مثل أمه . ففرحن وانبسطن ، ومن حسنه ونبله اكتحلن . وأشارت سوذابة على والده بتزويجه إحدى بناتها لكي تضمن قربه ، وتزيد حبه . لكن سياوخش رفض ، ومن بنات عمه أراد النسب . ثم استدعته سوذابة مرة ثانية، وعرضت عليه بناتها بعـــد أن بثت له وَجْدَها وعرضت عليه حبها . فاختار واحدة لتفادي الأمر ، وأفهم سوذابة بأنها له مثل الأم ، وحرام عليه أن يقابل وفاءَ أبيه بطعنة من الخلف . لكنها لم تقتنع وبدأت تلجأ للحيلة . فلما كان عندها مرة ، عرضت عليه نفسها ، فصدَّ عنها ، فمزقت ثوبها وصرخت صراخاً عظيماً سمعه الملك كيكاوس ، فدخل عليها وصرف خدمها ليرى مـــا في الأمر . فقـالت لـــه سوذابة : « هذا ولدك ، حاول اقترابي . فلما صددته لم ينصرف ، وباسمك لم يرتـدع . فمزق ثوبـي ، فصرخت خائفة على الوليد الذي في بطني » . أما سياوخش فقصَّ

عليه القصة كما جرت . فأخذ يده يشمها ، محـاولاً أن يجد أثراً لرائحة سوذابة عليها . فلما لم يجد ، عرف أنها المخادِعة . لكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً بها لأنها ابنة ملك هاماوران ، وأم أولاده وخـادمة أيامـه خصوصاً تلك التي قضاها في قلعة والدها حين كان سجيناً .

التجأت سوذابة للحيلة مرة ثانية . فدعت ساحرة عندها كانت حاملاً ، وطلبت منها أن تُسقِط الحمل الذي في بطنها . ففعلت ذلك في طست من ذهب ومن ثم اختفت . أما سوذابة فبدأت تصرخ وتستغيث حتى جاءَ الملك والقوم وأظهرت لهم صحة أقوالها . فاحتار الملك بالأمر ، واستدعى العلماء والوزراء ، فكشفوا له بعد مضي أسبوع أن الحمل الذي في الطست ليس من ظهره ولا من رحم زوجته ، بل هو لساحرة اختفت ولم تعد للظهور . وحتى يتيقن من الأمر أشاروا عليه بنار عظيمة ، إن خاضها أحد الخصمين وهو بريء لم تحرقه . فحضّروا الأخشاب حتى صارت على شكل جبلين عظيمين وأوقدوا فيها النار . وهيأ سياوخش نفسه للدخول فيهـا وسوذابة على النافذة فرحة بما سيصيبه . فلما دخل بفرسه وخرج سالماً . هلل الجميع فرحين وبأمر سوذابة أرادوا قاتلين . لكن سياوخش تشفعَ لها عند الملك فأبقى عليها وازداد حباً لها .

ثم إنـــه بلغ كيكاوس أمر تأهب افراسياب للاستيلاء على إيران . فجمع قواده ووزراءه ، وأوكـل أمر جيشه الى رستم وسياوخش الذي عرض نفسه تخلصاً مـن حِيَل سوذابة ، طامعاً بالصيت الذي سيكسبه من مقتل افراسياب، فذهب قاصداً ضيافـــة دستان في زابلستان ، فأقام عنده شهراً ، ثم أكمل طريقه متابعاً ، مجمّعاً جيوشه من كـل مدينة كان يمر بهـــا حتى وصل بَلَخ ، فباغت جيوش الترك بغتة قضت على معظمهم . وأرسل الى والده رسولاً يستأذنه في عبور جيحون ، فكان له مـا أراد . أمـــا افراسياب الذي لحقته الهزيمة ، فقد حلم حلماً مزعجاً بعـــد تبَلّغـِه خبر انهزام جيشه . فلقد رأى نفسه في خيمة تحرسها مئات الجنود . وفجأة هبت ريح عـــاصفة اقتلعت الخيمة والحاشية ، فأصبح وحيـداً بين جموع الإيرانيين الضخمة الذين ظهروا له ، وفي يد ورمح كل واحـد منهم رأس جندي مقتول مـــن جنوده . ومن ثم مسكوه ، وكبّلوه ولكيكاوس قادوه ، حيث أمر بقتله واستولى عـلى سرير مُلكـِه . فارتعد مرتجفاً ، وفي طلب المنجمين أرسل مسرعاً. ففسروا حلمه بأن قتل سياوخش وعدم قتله سيجر الويلات على مملكة توران . فسعى لدى سماعه هذا الخبر الى الصلح وأرسل أخاه كرسيوز رسولاً الى سياوخش .

وصل كرسيوز ، وأفضى بمـــا معه لسياوخش الذي استمهله للتشاور . فاجتمع برستم ، ورأيا إثباتــاً لكلام افراسياب الطلب منه إرسال مائة رهينة ، والتخلي عن بعض أراضي توران لمملكة إيران . فأجبر الأخير عــلى تنفيذ الرغبات وإرسال الطابات . لأنه لو لم يفعل فَسَيُظن بـه السوء ويلحقه المكروه . أما سياوخش فأرسل رستم رسولاً الى كيكاوس مُشيراً عليه وقف الحرب . فما أن عرف الملك بذلك ، حتى ثار وتوعد وفي وجه رستم هــدد . واتهمه بأنه حرّض ولده على وقف الحرب وقبول صلح افراسياب لما في نفسه من رفاهية وحب للمهادنة . وأمره بالبقاء عنده وأرسل طوس لقيادة جنده . فلما وصل الى حضرة سياوخش، علم الأخير بغضب أبيه وبتصميمه على محاربة افراسياب . فاهتمّ واغتمّ ، ولنقض وعد افراسياب لم يكن مصمماً. فاختار من قواده زنكة بن شاوران رسولاً الى افراسياب يعلمه فيه تصميم أبيه على محاربته ، مُرجعاً له الرهائن ، سائلاً إياه السماح له بعبور بلاده ليسكن طرفاً من الأرض، معتزلاً التاج والعرش ، متخلصاً من كيكاوس ، مُستريحاً من سوء خلقه وفساد طبعه . فرحّب الأخير بقدومــه ، وبالغ في إظهــار مودته ورغبته في تزويجه إحدى بناته . فيصير إليه عرش إيران بعد وفاة كيكاوس، وسياوخش عنده

بين يديه . فيصبح ملك الجانبين وصاحب الدولتين .

عَبرَ سياوخش نهر جيحون وهو حزين القلب . فترك ممالك إيران واتّجه الى بلاد توران . فلما وصل استقباله بيران قائد جيش توران ، فرحّب به أعظم ترحيب ، ونزل على كل طلباته مجيب . فاستأمنه سياوخش وسأله قائلاً : « هل يمكنني أن أثق بأفراسياب وأقيم عنده ، أو ألجأ الى حصن آخر خوفاً منه ؟ » فاستوثقه بيران مؤكداً أن نفس افراسياب تعمل بغير ما تضمر ، وأن كل شيء في توران تحت إمرة بيران . وبعد مدة، صارا كالصديقين، بل صار بيران والداً وهو ولداً . ثم ارتحلا الى افراسياب الذي ما ان رآه حتى بُهتَ لجماله وحسن كماله ، وأنزله في نفسه أحسن منزلة ، وخلع عليه الهدايا والجواهر ، ونفائس الكنوز والذخائر . ومضت سنة على هذه الحال ، وافراسياب لا يرى ولا يفكر إلا بسياوخش فهام حباً به وأنزله منزلة ولده ووافق على تزويجه فري كيس بطلب من بيران، بعد أن زوّجه هذا الأخير ابنته الكبرى جريرة .

تمّ زواج فري كيس من سياوخش . فاجتمع الشمس بالقمر على حد قول زوجة بيران كل شهر التي حملت للعروس من خزائن دورها وقصور عزها ، أغلى اليواقيت والجواهر

محملة على أطباق من الزبرجد والذهب ، مضمخة بالمسك والعود الرطب . وانتقل سياوخش مع زوجته وصحبه الى ختن مملكة بيران فأقاموا عنده أياماً ، انتقل بعدها الى موضع آخر بنى فيه مدينة دعاها بسياوخش كرد ، فكانت كالروضات منظراً وكالقصور بُنياناً وعِزّاً .

طَلَبَ افراسياب من أخيه كرسيوز زيارة سياوخش للاطلاع على أحواله وأفعاله في مدينته الجديدة . فارتحل ، ولما وصل ، استُقبِلَ بالدرر المنثورة ، وأُنزلَ مع حاشيته في القصور المبهورة . وأجلسه سياوخش قرب عرشه ، مبسوطَين فرحَين وبالشراب آمرين . لكن فرح كرسيوز كان في الظاهر ، أما في الباطن فقد دخل قلبه الحَسد وحالة نفسه اكتأب . وقرر أن يوغر صدر الملك افراسياب على سياوخش خصوصاً بعدما نازل هذا الأخير رَجلين من أشجع رجال كرسيوز فغلبهما . فلما عاد الى افراسياب تفوّه بالأباطيل وقال الأكاذيب عن سياوخش واتصاله سِرّاً بأبيه كيكاوس ، وتحضيره آلاف الجيوش لخلع افراسياب عن عرش توران . فَذُعِرَ مما سمع ، وبعث كرسيوز ثانية الى سياوخش طالباً منه المجيء ، وفي مُلك حضرته مُقيم . وصل كرسيوز الى سياوخش مغتمّاً ومهموماً . فلما سأله

عن أحواله أجاب : « يا مولاي ، ما لي أراني إلا نذير شؤم لك . فالملك افراسياب قــد غيَّر رأيه في حقك ، وهو يريدك أن تحضر اليه . لكني أنصحك وعــن السوء أبعدك ، فاكتب اليه كتابــاً تعتذر فيه عن سبب تأخرك بالرحيل ، علّني أهدئه ، وعن رأيه أغيّره ، بينما تكون قد خرجت الى مكان تكون فيه بمأمن على نفسك وروحك » . ثم أخذ بنفسه الرسالة وطار مسرعاً الى افراسياب ، فوصل بثلاثة أيام . فلما دخل الى حضرة أخيه ، سأله عن عجلته وسبب رحلته، فأجابه مشوِّهاً الحقائق ، مُحرِّضاً إياه على سياوخش الذي تفاقم شره واستفحل أمره . فما كان من افراسياب إلا أن حضّر جيشه وبأمر سياوخش وجّهــه . فلما علم بقدومه ، ودّع زوجته فري كيس طالباً منهــا الحفاظ على ولدهــا الذي في بطنها ، وخرج . وبينما هو خارج مع حرسه ، لاقاه افراسياب بجنده . فــاقتتلا قتالاً عظيماً وقُبض على سياوخش الذي كُبِّل وسيق إلى حضرة افراسياب . فلما مَثُل بين يديه،تردد في رأيه بين مستعجل في قتاه ، ومستمهل في سَجنه ، وبتحريض من كرسيوز وقــوّاده سلّمه إلى كروزره الذي أخذه إلى جــانب في الصحراء وذبحه بخنجر كرسيوز الذي قدمه اليه في طست

من ذهب . فنبت مكان الدم نبات معروف بخون سياوشان أو بدم الأخوين .

عامت فري كيس بمقتل زوجها فلطمت خدها ونتفت شعرها ولعنت أباها الذي ربَّاها . فما أن سمع صراخها حتى أمر بها طالباً قتلها ، وإسقاط الوليد الذي في بطنها . لكن توسلات بيران الذي قَدُم بطلب من أخيه بيسلم شفعت لها . فأخذها وفي قصره وضعها طالباً من زوجته أن تنزل في خدمتها كأنها ابنة لها .

٧

الثأر

ولـــدت فري كيس صبيـــاً أسمته كيخسرو كما طلب سياوخش قبل مقتلـه . فكان كوالده رسماً وكشكله قداً . وفرح بيران به وخاف عليه من افراسياب ، الذي مـا أن علم بمولـده حتى أمر بيران بأخذه إلى الجبال ، ووضعـــه هناك ليكون بعيداً عن كل حقد وثأر لأبيـــه سياوخش . فأخذه وعند الرعاة وضعه . فلما شبَّ. وتصيد من الغزلان والأسود كثيراً ، أخذه بيران وربّاه . فلما أراده افراسياب، أخذه له بعدما نبّهه بتفريغ عقلـــه ، وعكس. كل سؤال يسأله . فلما سأله افراسياب عن الليل والنهار ، أجابه عن الأنهار . وعن أمه وأبيـــه ، أجابه عن معلميه ، فرضي عنه ولبيران منحه . فأرسله هذا الأخير مع والدته فري كيس

والآلاف من الهدايا والأسلحة والملابس إلى مدينة والده سياوخش كرد .

في الناحية الأخرى من الأرض ، كانت الجموع تبكي وتنوح . وكيكاوس يهدأ ويثور بعدما علم بمقتل ابنه . فطالب بأخذ الثأر ، ولاقاه رستم لنفس الأمر ، فجاء ناحباً وعلى شباب سياوخش آسفاً . ودخل على الملك مؤنباً، وعلى زوجته مُحرِّضاً . فهجم كيكاوس على غرفتها وشدها من شعرها وقتلها بسيفه . وتوجه بعسكر عظيم لم يكن للملوك الإيرانيين مثله في القديم ، مصمماً على دكِّ معاقل توران وقتل افراسياب . فوصل إلى اسفنجاب ، ونازل فرامرز بن افراسياب ملك تلك المنطقة . فقتله ، ونهب مُلْكَه وأحرقه .

تناقلت الأخبار بطش رستم وقوّاده ، فلاقاهم افراسياب مع ولده سرجه الذي أُسِرَ وَذُبح حسب ما فعلوه بسياوخش ، حذو السن بالسن والعين بالعين . ثم تلاقت الجيوش والتحمت التحاماً عظيماً . فتبارز الفرسان وتناهض القواد ، واخترقوا بعضهم بعضاً . فتجندلت الجثث وطارت الرُّكَب . وجرح رستم افراسياب الذي هرب دون أن يعلم أحدٌ بهروبه .

فدخل رستم ممالك توران ، ونزل فتكاً وذبحاً ، وهدماً وردماً ، وقتلاً وسبياً . فأصبحت دورها على التراب والرياح تذروها كالرماد ، وذلك في أعظم ثأر وانتقام لم تعرفه ممالك توران . ثم قفل راجعاً إلى ممالك إيران فبقي في نيم روز عند والده دستان ، وأرسل قواده إلى كيكاوس لمساندته إذا احتاج الأمر .

وكان عند الملك كيكاوس قائدٌ يُدعى جوذرز بن كشواذ . رأى رؤيا تأمره بأن يرسل ولده جيو للبحث عن كيخسرو في ممالك توران ، والعودة به لاستلام حكم إيران . فَتَنَفَّذ ما أُمِرَ به وأرسل ولده جيو بصحبة فرسه ووهقه . فدخل ممالك توران ، وأخذ يسأل ويستفسر عن كيخسرو . وكان يقتل كل شخص يسأله عن الملك الصغير ، لئلا يُذاع أمره ، وينتشر سره . وظلّ يبحث ويبحث مدققاً ، مشككاً في أمره حتى مضت سبع سنوات .

وبينما كان ذات يوم يستريح ، ويرعى فرسه في مرج أخضر ، جاءه شخص كالقمر الطالع والسرو الباسق . فعرف انه كيخسرو ، فأقبل عليه مُقبِّلاً وعن حاله سائلاً . فأيقن أنه الملك الشارد كالغزال الوارد . وعرف كيخسرو انه جيو بن جوذرز الذي حدثته عنه والدته

فتعانقا وتصادقا ودخلا سياوخش كرد لإخبار فري كيس التي ما ان رأت جيو حتى علمت بمقصده وقوة شجاعته .

هرب الثلاثة تحت جنح الظلام قاصدين ممالك إيران . لكن خبر الهروب انتشر ، ولأذن بيران وصل . فأرسل شرذمة صغيرة من قواده وعساكره وراء الهاربين . فلما لم تستطع قتلهم ، قام هو بنفسه سائراً في اثرهم مع عدد كبير من جنده وعسكره .. فالتقوا في واد عميق ، كثير المياه ، واستطاع جيو بحيلة أن يجلبه لوحده للضفة الأخرى من الوادي . فنازله واستطاع أن يكبّله، ويلبس ثيابه وسيفه ورمحه . ورجع الى جنوده فاتكاً بهم ، قاتلاً منهم خلقاً كثيراً . ثم رجع الى بيران وأراد أن يقتله لكن فري كيس تشفعت له وفاءً لعمله . وظلوا هاربين كاللصوص شاردين حتى وصلوا ضفة نهر جيحون وأرادوا أن يقطعوه ، فمنعهم صاحب السفن طالباً واحداً بأربع . فإما الدرع ، وإما الفرس ، وإما كيخسرو ، وإما فري كيس . لكن جيو رفض وقال لكيخسرو : « إن كنت ابن سياوخش حقاً، فَخُضْ هذا الماء كما فعل افريدون من قبلك » . فنزل عن حصانه وسجد لله تعالى ، وقطع الموج المتلاطم إلى الجانب الآخر ، فسلم من افراسياب الذي صار وراءه بجيش

عظيم العدد والعدة ، وأراد أن يقطعه . فنهاه هومان أحد قواده ، فظلّ مكانه وبينه وبين ملك ايران وتوران (أي كيخسرو) موج متلاطم وثأر متفاقم .

وَصَلَ كيخسرو إلى خراسان من ممالك إيران . فأقيمت الزينـات والحفلات ، ونُثِرت الجواهر والمزاهر . وظلّ فيهـا أسبوعاً في قصر جوذرز . ثم انتقل مع صحبه إلى اصطخر لرؤية كيكاوس . فلما وصل،تهافت الملوك والأمراء لتقديم ولاء الطاعـة ، مرحبين مهللين ، ولِمَلِكِ إيران وتوران داعين . لكن طوس بن نوذر تخلف عن الحضور، وتهادن في استعجال الأمور ، محتجـّاً بعدم تسليم الملك إلى كيخسرو من نسل افراسياب وشجرة بشنج ، ما دام هناك فري برز بن كيكاوس أحقّ بالسلطنة وإدارة المملكـة . فغضب جوذرز من كلامه ونهض اليـه مع أولاده السبع والثمانين باثني عشر ألفـاً من الجنود . فلما التقيا وللمنازلة استعدّا ، استدعاهما الملك كيكاوس طالباً منهما بثّ ما في قلبهما . فلما أدرك انهما يتنازعان عـلى مَن سيكون ملكاً من بعده ، أمرهمـا بالتوجه إلى قلعـة بهمن في أرض أذربيجان ، وتخليصها من أيدي الإنس والجـان . والذي ينجح ، يوليّ ملكه رأس المملكة وتاج السلطنة . وهكذا

كان . فلم يفلح طوس في محاصرة بهمن لأن أسلحته صارت كالحديد المُذاب من شدة اللهب الذي صادفه على الباب . اما كيخسرو فهدّد أهل القلعة وتوعد . وربط تهديده على رأس رمح وضعه جيو في حائط القلعة على اسم الله تعالى . فهبطت القلعــة وطارت الجن والعفاريت كالجراد محدثــةً وراءهـا لهيباً أسود وغباراً أمرَد . ثم رجع إلى كيكاوس وتسلم العرش والتاج، وصفح عن طوس وأدخله في خدمته .

جلس كيخسرو على عرش ممالك إيران . وبسط العدل والإنصاف والرحمة والإحسان . وزار كل الممالك ، بانيــاً الأراضي المهدمة ، رافعاً لواء السلطنة . حتى استراحت البلاد في عهده وفي ظلّ مُلكه . واجتمع بعد مدة من حكمـه مع كــل ملوك إيران ، مــن رستم ودستان إلى طوس وجوذرز وشاكس وزنكه بن شاوران قائد عساكر بغداد . فعاهدوه على الوفــاء والانتقام لسياوخش بن إيران مــن افراسياب ملك توران . ثم سلّم قيادة جيشه إلى طوس بن نوذر وفاءً للعهد ، طالباً منه الثأر ، وأمره بعدم سلوك طريق قلعـة كلاب لئلا يعتقد صاحبها ، وهــو أخوه من جريرة بنت بيران أنهم في قصده . فلما ارتحل وللمكـان وصل ، فضّل أن يأخذ الطريق المذكورة لكثرة مياههـا وعمرانها .

فلما عرف صاحب القلعة فروذ بقدومهم ، نصحته والدته بالانضمام اليهم ومعاونة مقصدهم في الثأر لوالده من افراسياب . فذهب مع تخوار أحد فرسان قلعته ، ووقفا على قمة جبل عال ، يرقبان طوس ورجاله . فما أن رآهما حتى انتدب بهرام بن جوذرز لرؤية أحوالها ومعرفة نواياهما . فلما صعد اليهما ، وحقق في أمرهما واستبان مقاصدهما ، خرّ ساجداً لابن سياوخش وشقيق ملكه كيخسرو من الأب الواحد . وعاهده على إبلاغ أمره إلى قائده . لكن طوس لم يرضَ بالأمر الواقع ، واستعاض عنه بالحكم القاطع . وبعث ريّو أشجع فرسانه ليأتيه برأس ذلك التركي . فصعد اليه . فلما رآه فروذ ، وكان قد تواعد مع بهرام على المجيء إذا وافق طوس ، أخذ رمحه وفي القلب أصابه فمات ريو ، ومن بعده زرسب الذي كان صاعداً لنفس الغاية . ثم رمى فروذ نشابه على طوس وجيو فأصاب فرسيهما . فثار بيژن ابن جيو على ما أصاب والده . فصعد كالسهم الخارق والرعد البارق . واستطاع أن يردع فروذ إلى القلعة ، ثم رجع إلى معسكر جيشه . فلما أصبحوا ، على القلعة هجموا . وظلوا يتقاتلون حتى بقي فروذ وحده . فضربه رهّام ضربة أطارت يده . فرجع إلى القلعة ، ومات متأثراً بجراحه . أما والدته جريرة فأحرقت جميع الذخائر والأسلحة وأخذت

خنجراً طعنته في صدرها وماتت إلى جانب ولدها .

دخل طوس القلعة نادماً ، وعلى سوء فعلته شاتماً .
وحنّطوا فروذ ودفنوه في ناووس على رأس الجبل الذي كان عليه . وتابع طوس طريقه الى تركستان فوصل كاسرود (وادي كاس) وقتل بلاشان الخارج من عند افراسياب ليتعرف على أحوال العسكر ويقف على عددهم وعدّتهم .

جاءَ الشتاء بعواصفه وثلوجه وطوس في مكانه . فَسُدَّت عليه المنافذ والمخارج ومات من جنوده العدد الكبير . فغيَّر دربه وعدّل خطته . وكان افراسياب قد وضع جبالاً من الحطب في الطريق التي ساروا عليها . فلما وصلوا ، أمر طوس جيو بإحراقها . وظلوا ثلاثة أسابيع حتى خمدت نارها وانطفأ لهبها . فقطعوها الى جيوكرد ، والتقوا بتراو أحد حماة أراضي افراسياب . فنازلوه وقاتلوه وعن أرضه أزاحوه ، فهرب الى ملك التورانيين منبئاً بقدوم جحافل الإيرانيين فأمر بيران بالتأهب والاستعداد .

رحل بيران وقطع ، وبالجواسيس وأصحاب الأخبار اجتمع . فأخبروه أن الإيرانيين في غفلة من أمرهم من كثرة شربهم وسكرهم . فهجم عليهم هجمة حسبوا لها أن الصباح قد أبكر في طلوعه ، فقاوموه وحاربوه ومن مكانه

لم يزحزحوه . وهرب الذي هرب واحتموا في سفح الجبل متفقدين أحوالهم ، منقذين موتاهم . فلما اجتمع من بقي، أرسلوا رسولاً الى كيخسرو يعلمونه بالأنباء المفجعة والكبسات المبغتة . فلما وصل الى حضرته وكان بعد لم يفق من صدمة وفاة أخيه . ثارت ثائرته على طوس لطيشان عقله ونقص منطقه . وكتب رسالة الى عمه فري برز يسلمه زمام العَسكر والدرفش (اللواء) الميمون ، ناصحاً إياه بمشاورة جيو بن جوذرز في كل شاردة وواردة .

استلم فري برز ما أمره بـه ابن أخيه . وأخذ يرتب الجيش مسلّماً فِرقه الى القواد الذين بقوا . وهادن بيران مدة من الزمان . فلما انتهت المدة ، وكان فري برز قد استعدّ . دارت الدائرة مرة أخرى على الإيرانيين . فاستبسل جيو وأولاده وأحفاده خصوصاً بعد هرب فري برز بالدرفش المنصور . فأمر جيو حفيده بيژن باسترجاعه . فلما لم يقبل فري برز استلّ سيفه وشطره الى شطرين . ثم رجع الى وطيس المعركة بنصفه مفدياً دمه ليبقى مرفرفاً . خسر الإيرانيون الجولة الثانية من المعركة . وفُقِدَ منهم من العدد والعدة أرقامٌ لا يمكن حصرها ولا عدها . فقفلوا راجعين الى كيخسرو تاركين وراءهم خياماً مضروبة وخزائن

متروكة ، هجم عليها بيران فأتى عـــلى معظمها وفرّقها على جنده وعسكره .

غضب كيخسرو والتهب ، وصبّ جام ثورته على طوس وفري برز ومنعهما مع قوادهما من الدخول الى حضرته . ولم يزل على قسمه حتّى تشفع لهما رستم بطلب منهما . فعـــاد طوس ودخـــل عليه وعرض مقاتلة افراسياب من جديد فوافق كيخسرو بعدما استشار رستم .

سار طوس بجيش عظيم ، فقطع الصحراء ووصل الى وادي الشهد . وتراسل مع بيران محرضاً إياه عـــلى ترك توران والاتجاه نحو إيران . فما كـان من هذا الأخير إلا أن استنجد بأفراسياب وبساحر عنده يُدعى بازو ، الـذي صعد الى جبل يطل على الوادي . فأرسل عواصفه الثلجية ورياحه الشتائية . فتسمرت أيدي جنود إيران على أسلحتها ، ونزل الترك بهم قتلاً وبطشاً . فسالت الدمـاء كالأنهار ، وغطت الأودية حتى صارت كالبحار . لكن رهام أحـــد قواد طوس رأى بـازو في أعلى الجبل . فصعد اليه وقتله وأزال سحره فرجع الطقس الى ما كان . ثم تحصن جنود إيران بجبـــل يُدعى هماون وأرسلوا الى كيخسرو يطلبون رستم . فساعدهم وعـــلى طلبهم أجابَهم . وأرسل رستم

على رأس جيش عظيم ولّى قيادته لفريبرز الذي كان قد تزوج أمـــه فري كيس ، فرضي عنه . فلما وصل رستم بإمداداته ، ونزل في الجبل عـــلى إخوانه . هللوا فرحين ولاستقبال القادم انتشروا مُخبرين . هـــذا يحدثه عن قلقه ووجمه ، وذلك يخبره عن جند توران وكثرة عددهم بقيادة بيران . فأخذ يرتب جيشه ، وينظّم صفوفه جاعلاً جوذر على الميمنة ، وفريبرز على الميسرة ، وطوس بالقلب . وانتظروا يتحضرون للهجوم .

في الناحية الأخرى مـن الجبل كان بيران قـــد استعدّ بأعداد عِدة ، يسانده في ذلك الجيش العظيم ، خاقـــان الصين ، وكاموس الكشاني بطل أبطـــال بلاد مـــا وراء النهر ، الذي ضُرِبت به الأمثال بالشجاعة والقوة،والجرأة والمروءة ، اللذان لما وصلا ، وبضيافة بيران نزلا ، أخذوا يتشاورون وللحرب يعدّون . فوضع الخاقان نفسه في القلب وكاموس على الميمنة ، وبيران على الميسرة . فهذا المعسكر يخاف من عدد الإيرانيين ومن سمعة رستم . وذلك المعسكر يخاف من كثرة عددهم المجموعة من بلاد الصين وسقلاب والهند .

دُقّت الطبول لبدء الهجوم من كلا الجانبين . فاشتبك

الجيشان في قتال عظيم ، وَخَرُقَتَ الصفوف . وتقدم من جموع التورانيين فارس يُدعى اسكيوس طالباً المبارزة . فنزل اليه رستم بعد رهام بن جوذر . فرماه بنشابين أصابا فرسه وصدره فقتل ومات .

ولما صاروا في اليوم الثاني ، تصايحوا للقتال ، وتقدم كاموس الكشاني طالباً الذي قتل اسكيوس غير عالم انـه رستم . فنزل هذا الأخير لابساً درعـه ، حـاملاً سيفه ووهقه ، ممتطياً رخشه . وضربه ضربة أنزلته عن فرسه . فأسره وأخذه لأصحابه الذين أنزلوا سيوفهم به . فتناثرت أوصانه وأجزاؤه ، وتطـايرت أعضاؤه وأشلاؤه ، آخذين بثأر الفارس الواذ الذي كان قد قتله قبل منازلتـه رستم . فَذُعِرَ الأتراك لموته غير عالمين انه قتل على أيدي رستم . ثم أرسلوا هومان لمعرفة من هو من الفرسان . فلما اقترب وساءله عن حاله ، عرف انه رستم الذي طلب منه وقفاً للحرب تسليمه قتلة سياوخش ومقابلة بيران . فبرز بيران هائجاً ، ولسرادق رستم مشى خاضعاً . فتصافحا وتعانقا، طالباً الصفح من رستم وكيخسرو ، ذاماً شاتماً افراسياب الذي لولاه لهدأت الأرض ، وانـه لو اختار ففي مُلك كيخسرو صار . ولكن ما الحيلة وكل أقاربه وأقرانه تحت

إمرة افراسياب . ثم وقف على طلبات رستم في وقف
الحرب . فلما عاد وقابل الخاقان نصحه بوقف القتال ،
إلا أن شُنكل الهندي ملك الهند ، غيَّر من رأي الخاقان ،
وبأمل الانتصار وعده بأمان . فتحضّروا وللحرب نزلوا .
بعد أن رفضوا طلب رستم . وتقدم بيران من شنكل الهندي
مذكّراً إياه بوعد الانتصار . فما كان منه إلا أن قسّم
الجنود إلى ثلاثة أقسام واضعاً في كل قسم ثلاثين ألفاً ،
يبدو من خلالها الفيلة العظام ، ثم نزل طالباً منازلة رستم .
فتقابلا وعلى الثأر تنافسا . فهرب شنكل مُلتجئاً بجنوده ،
وتقدم رستم خارقاً بصفوفه . وأخذ يدور زائراً كالأسد ،
مقتحماً الأقسام ، مشتتاً شملهم حتى وصل إلى الخاقان .
فضربه بوهقه وأنزله عن فيله . فكبّلوه وأخذوه أسيراً .
فلما رأى بيران ما حلّ بجيش افراسياب ، ولى هارباً ،
كالغزال راكضاً . أما رستم وقواده ، فاستباحوا خيمهم
ونهبوا أرزاقهم . وحمّلوا قسماً كبيراً بقيادة فري برز إلى
كيخسرو . وتابع رستم طريقه في قصد افراسياب . فوصلوا
أرضاً واسعة كالمراعي اليانعة . فنزلوا فيها وبقوا ردحاً من
الزمن يأكلون ويشربون وبنصرهم ينتشون . أما فري برز
الذي وصل إلى كيخسرو فقد استُقبل استقبالاً عظيماً .
داعياً مع الملك إلى بقاء رستم بن دستان بطل ممالك إيران .

جَمَعَ افراسياب أمراءه وأعوانه للتشاور والتداول بعدما سمع بمقتل كاموس وأسر الخاقان وانهزام بيران . فنصحوه بالتصدي لابن دستان قبل أن يتوغل في بـلاد توران ، فيقُضَّ ملكه ويزيل عهده . فهيأ جيشاً عظيماً ، وأرسل مع ولده شيذ رسالة إلى جني يُدعى بولاذوند يعده فيهـا بنصف ممالكه إن هو تمكن من رستم . فجاء هذا الأخير مع أصحابه ووعدوه بالغلبة إنْ اتبعوا طريق الحيلـة . في هذه الأثناء كان رستم قد ترك أرض إيران وتوغل في ممالك توران . فوصل قلعة حصينة لملك يُدعى الكافور من آكلي لحوم البشر . فحاصر القلعة ورماها بالسهام بعدما استعصت على قائده كستهم وجنده الذين قُتل منهم عـدد كبير . ثم أمر الحفّارين بوضع أسسها ومبانيها على ألواح مـن الخشب . ورماها بالنار واللهب . فانهدَّت على من فيها . ثم أكمل طريقه واستولى على ديار الخُتَن ، فأصبح قريباً من أرض افراسياب . وفجأة تلاقى الجمعان بسيوف صليلة ورماح كثيرة . واستطاع بولاذ الجني حشر طوس وجيو وبيژن ورُهام . وشطر اللواء الى شطرين . فلما رأى رستم ما حلَّ بقواده ، تصدى لبولاذ . فنازله وصارعـه وفي أرضه وضعه . فوثبَ هارباً ولأفراسياب مُخبِراً ، الـذي كان قد أخذ صحبه وغيَّر دربه . وجمع مـا يمكنه حمله

من النفائس والذخائر . وتوجه ليعبر الى الناحية الثانية من بحر الصين، منقذاً رأسه، حافظاً جلده . أما رستم فقد رجع الى الملك كيخسرو بعدما أقام زمناً في بلد افراسياب . فاستقبل كالفاتح مرشوشاً بالروائح . وبقي مدة عند الملك بين شرب ورقص وفرح ومرح .

وكلّفه كيخسرو وهو عنده بالقضاء على اليعفور الذي ظهر فجأة وأخذ يقتل الخيل بعد انقضاء الليل . فخرج رستم الى الصحراء التي ظهر فيها ، باحثاً بين مروجها ومراعيها . وظلّ على تلك الحال ثلاثة أيام . ولما كان اليوم الرابع ، مرّ اليعفور من أمامه كالريح الهوجاء في مسابقة العنقاء . فلحقه رستم ولم يجده فأدرك انه أكوان الجنيّ . ثم ظهر له في آخر الصحراء . فلحقه مُسرعاً ونام بعد ثلاثة أيام مُتعباً . وبينما هو نائم ، اقترب أكوان من المكان وكوّر الأرض النائم عليها وحملها بين يديه . فاستيقظ رستم من نومه، وآخذ نفسه على غفوته . وكان يدرك أن الجنيّ يعمل بعكس ما يُقال له . فلما سأله الجنيّ عن الموضع الذي يريد أن يرميه فيه أجابه على اليابسة حتى يقتل الأسود والسباع الضاربة . فرماه هذا الأخير في البحر . فأخذ يسبح بيده اليُسرى ويقتل الحيتان وسباع البحر باليُمنى.

فلما وصل إلى الشاطىء ، نشّف ثيابه وغسل جسده وشكر ربه على نجاته من الخطب العظيم . ثم عاد الى المكان الذي اختطفه فيه أكوان وهـــو من مُلك افراسياب الذي خرج لمقاتلته بعدما علم بوجوده . فقاتله طويلاً وقتل من جنـد افراسياب عدداً كبيراً . ولـمـــا ظهر له أكوان ، قاتله في ذلك المكان . فرماه بوهقه وقتله وقطع رأسه الكبير الذي يشبه رأس فيل ، ومن ثم علّقه بسرجه وعـاد الى الملك كيخسرو . فاستُقبل بألعاب المبارزة والمطاردة وجلس مـع الملك وصحبه يتعاطون كؤوس الأرجوان على الورد والريحان الى تمـام أسبوعين . ثم ارتحل الى زيارة والده بعدما خلع عليه الملك خلعة تشتمل على أصناف الكرامات والمبرات .

ذات يوم كان كيخسرو جالساً في مجلسه ، فجاءه جماعة من أهل أرمان (وهي ناحية بين إيران وتوران) مستنجدين ومن الخنازير البريّة هاربين . فرقّ لهـم ، وأوصى بيژن ابن جيو الذي عرض نفسه للخدمـــة بمقاتلة الخنازير ، مصطحباً معه جُرجين بن ميلاد العارف ببلاد توران وبشعاب أرمان . فلما وصلا الى هناك ورأى جُرجين شجاعة بيژن في محاربة الخنزير . دخل إليه الحسد وفي قلبه اتقد . فأشار عليه بروضة غناء تذهب اليها منيژة ابنة افراسياب . فذهبا

لاستراق النظر بدون خفر . فلحظته منيژة جالساً تحت ظل شجرة . فوقعت في حبه وأرسلت خادمتها تستدعيه . فلما جاء جلس معها تحت الأفياء . يشربان ويتنادمان وحباً يزدادان . ولما أرادت الارتحال سقته دواء مُرقِداً ، وحملته معها الى منزل والدها بعدما ضاجعته ومن حبها استوهبته . فلما استفاق ، وجد نفسه في أرض توران وفي قصر افراسياب بالتمام . لكن أمره عُرِفَ وسره كُشِفَ . فقصده كرسيوز بناءً على طلب أخيه أفراسياب . فدخل قابضاً عليه بحيلة ، ثم جره الى الملك افراسياب الذي أمر بصلبه ، وزَهْقِ روحه . لكنه عاد وغيَّر رأيه بعد تشفعات بيران ، وأمر بوضعه في بئر مظلمة لا يدخلها نور الشمس ولا القمر ، وسدَّ بابها بالحجر الضخم الذي أتى به أكوان الجني من بحر الصين . أما ابنته منيژة فقد استباح ملكها ، وإلى الصحراء جرَّها . فأخذت تطوف باحثة عن كسرات خبز تعطيها لبيژن من الثقب الذي في باب البئر :

رجع جُرجين وهو حزين بعدما حاول العثور على بيژن . فلما رآه جيو والد بيژن . سأله عن ولده . فشوَّه له الحقائق قالباً إياها رأساً على عقب ، فأخذ يلطم ويندب مُوصلاً أمر ابنه الى الملك كيخسرو ، الذي هدَّأ أمره

وخفف روعه واعداً بالنظر في الفلك وإخباره بأحوال ابنه.
فلما نظر ، وعن أحوال بيژن اطلع . أرسل مع جيو رسالة
الى رستم يدعوه فيها للنهوض وعن ابن جيو يذود . ففعل
بما أمر ، وتوجه الى الملك ، وبقي عنده مدة في روضة
كأنها الجنة . آكلاً شارباً ومن الفرح والمرح غارفاً . ثم
جمع نفسه مع سبعة من أمراء البلاد ، وجُرجين الذي تشفع
له عند الملك فرضي عنه ، وعدد كبير من الجنود قاصداً
أرض توران . فدخلها متنكراً مع أصحابــه بزي تاجر .
فلما سمعت منيژة بالتجار القادمين من بلاد إيران ، قصدتهم
وعن أمر كيخسرو وجيو سألتهم . لكنهم أبعدوها وعـن
الأمر نهروها . ثم لاطفوها بعدما عرفوهـا ، وأخذ رستم
يسائلها حتى عرف أحوال بيژن . فوضع خاتمه في فرخـة
وأمرها بأن تأخذها الى بيژن ، الذي ما أن رأى الخاتم ،
حتى هـَلـّلَ وللمنقذ بَشر . وفي ليلـة ظلماء ، اتجه رستم
مع صحبه الى مكان البئر . فأزاح حجره وحده ، وأخذ
عهداً من بيژن بالصفح عن جُرجين . ثم انتشله وفي بيته
وضعه مع منيژة . وأمر عسكره بالهجوم على قصر أفراسياب.
فهجموا وقتلوا وذبحوا ونهبوا ثم رجعوا الى حضرة الملك
كيخسرو الذي أعـــدّ لهم مقصفاً فاخراً ومكاناً باهراً .

فأمسوا ولما أصبحوا ، نظر الملك في أحوالهم ومن الجواهر والخِلَع النفيسة أهداهم .

هـالَ افراسياب الهجوم الذي حصل في عقر داره . فأرعَدَ وأزبدَ وأنذر وتوعد . وراسل بغبور ملك الصين وسائر ملوك الأطراف فأنجدوه بجيوش جرّارة كالأمواج الهدّارة لم يحصل عليها أحد من ملوك الترك قبله . فرتّبها وقسّمها ووضع قواده في قيادتها . ثم وجهها لملاقاة جنود كيخسرو في سائر الممالك والأطراف . وسيّر مع بيران خمسين ألفاً . فوصلوا إلى جبل عظيم حُوصِرَ بالإيرانيين . فوقفوا واستعدوا .

أما كيخسرو فلما وصلته أنباء افراسياب ، جمع كـل فارس ومقاتل من بلاد الروم والهند والعرب . وقسّم العسكر إلى أربعة أقسام . فجعل رستم يتجه الى سجبستان .. ويتوغل في بلاد الهند وغزنة فيفتحها . وأعطى لهراسب ممالك الان . وجعل اشكس يتوجه لملاقاة شيذه بن افراسياب . وجعـل على القسم الرابع جوذرز بن كشواذ وغـيره من القواد . فساروا حتى صار الجبل عن يمينهم ، والماء عن يسارهم ، والعدو من ورائهم . فخيّموا هناك واستعدوا .

رتّب القواد صفوفهم ، وقسّموها الى ميامن ومياسر

وقلوب . وظلوا على حالة التأهب خمسة أيام . فلما انقضت جاء بيژن الى والده داعياً إياه الى شن الهجوم . فاستمهله وعلى خطته أطلعه . وفي الناحية الأخرى ، كان هومان شقيق بيران يحث أخاه في بدء القتال . فلما لم يلقَ منه جواباً . تقدم داعياً للمبارزة . فلاقاه بيژن مُلبّياً دعوته : فتنازلا وتقاتلا ، وبالرماح والسيوف تطاحنا ، ثم استراحا قليلاً ليعاودا القتال . فلما رجعا تمكن بيژن من هومان بضربة أوقعته أرضاً فاستلّ خنجره وذبحه . ولما رأى نفسه سيعود من أرض عدوه ، لبس لباس هومان ، وتسلّح بأسلحته حتّى وصل الى معسكره . فلما رآه الجنود سالماً ، شكروا ساجدين ، وإلى ربهم مبتهلين .

أما بيران فقد حثّ شقيقه الثاني نستيهن على الأخذ بالثأر . فتقدم بجيوش كثيرة ، ما أن أصابتها سهام الإيرانيين حتّى فروا هاربين تاركين خلفهم جثة قائدهم نستيهن . فأرسل بيران رسولاً يطلب النجدة . وحذا حذوه جوذرز الذي ما أن وصل ابنه هجير الى الملك كيخسرو ، حتّى ردّه مُبشّراً ، وعن النصر مُبلّغاً . فقد استولى رستم على قشمير وكابل ، وأشكس على خوارزم بعد هزمه شيذه ابن افراسياب ، ولهراسب على ممالك الان الى أقصى الخزر.

وأرسل له طوس ليعاونه في صد أفراسياب إذا عنّ له أن يقطع نهر جيحون مع العلم أن جنودهم قد توغلوا في ممالك توران وحكموها بعد إيران .

لجأ بيران إلى الحيلة عندما عرف بتوغل جنود إيران في ممالك توران . فبعث مع ولده روئين رسالة إلى جوذرز يقترح فيها وقف الحرب وإعادة تقسيم الممالك ، وحجته في ذلك الخوف على البقية الباقية من جنود الإيرانيين من فتكه وبطشه . ثم ختم رسالته قائلاً : « فإن أبيت ، وعلى الحرب نويت ، لاقني مع عشرة من أمثالك للتبارز واحداً واحداً لنرى من ستكون له الغلبة بعد هذه الوقعة » . رفض جوذرز اقتراح بيران ، ولاقاه في عشرة من كبار قواده مثل فري برز بن كيكاوس ، وجيو بن جوذرز ، ورهام ابن جوذرز ، وبيژن بن جيو ، وهجير بن جوذرز ، وزنكه بن شاوران ، وجُرجين بن ميلاد . فقتل كل واحد منهم ، قريناً له من قوّاد الأتراك وأشجع فرسانهم . ثم تقابل جوذرز وبيران وظهرت الغلبة للأول حين ضرب فرس خصمه بنشابة رمت صاحبها عن ظهره . فلحقه واستمهله . فرقّ قلبه له . لكن لما ظهر لؤمه وشره ، رماه جوذرز بقوس أصاب ظهره . ففار الدم من فمه وتقدم

جوذرز شارباً من دمه ، منتقماً لسياوخش ولأولاده السبعين .
ثم تركه وأرسل ولده رُهام ليجلبه مع الآخرين ، ليراهم
الملك كيخسرو لدى وصوله . الذي ما أن وصل،حتى سجد
لله العليم ، القادر على كل ذي شأن كبير . ثم أجزى
جوذرز ممالك أصبهان ، ووضعه على عرشها وتاجها .
وخلع على كل القواد والأمراء ما حصلوه من عسكر
بيران ، الذين جاؤوا يطلبون الأمان . فأدخلهم في طاعته
وبشّهم في مرافق البلاد . ولما رأى جثة بيران ، بكى
وفاضت دموعه لما سلف اليه من الإحسان ، وذكره بالخير
وأسف على موته ، فقد سبق السيف العذل . ثم أخذ
خرزة كان قد ورثها من أجداده ، فشدّها على عضد كستهم
الذي جُرِح بعد قتَله فرشيذ ولُهاك ، ولدي بيران ،
اللذين لحقهما ، وقرب النهر فتك بهما . وظلّ متأثراً بجراحه
حتى أسعفه بيژن بن جيو ، فنقله محمولاً ليكحّل رؤيته
بوجه الملك قبل أن يموت . لكن الملك شَفاه ومن كثير
نفائسه أعطاه . وصمم كيخسرو على اللحاق بأفراسياب
وَقَطعْ نهر جيحون . فجهّز لذلك جيشاً يفوق كل
الجيوش التي قادها عَدداً وعُدة ، اعتمد في معظمه على
الفيلة التي كانت تقل أبرز قواده .

علِم افراسياب بهزيمة جيشه ، وبقتل بيران وأخويه. فتألم وبكى،ومن ظلم كيخسرو شكا . وأقسم أن يرد الصاع صاعين وينتقم من كيخسرو . فجهّز لذلك جيشاً من أعظم وأضخم جيوش توران ، وتوجه وقطع نهر جيحون بآلاف القوارب في مدة أسبوع . فلما وصلوا ، تأهب الجيشان ، ولم يحركا أي ساكن للحرب . ولما كان اليوم الثاني ، أرسل افراسياب ابنه شيذه رسولاً الى الملك كيخسرو ، يعرض عليه السلام والعيش في وئام ، فإن أبى وللقتال نوى فهو مستعد وولده شيذه للمبارزة ، ليجنبا جيشهما أخطار الحرب والقتل . فتشاور الملك مع قوّاده الذين أشاروا عليه القبول وعدم دق الطبول ، إلا رستم فقد رفض . فنزل الملك عند رغبته محتجاً بأنه لم يتحمل عناء السفر للموافقة على السلام . وقبل بدء القتال ، تبارز كيخسرو وخاله شيذه . فغلّب الأول ، وخارت قوى الثاني ، فطلب المبارزة مترجلاً ، فلما ترجلا والمصارعة ابتدآ . رماه كيخسرو الى الأرض ، واستل خنجره وشق صدره . وعندما علم افراسياب بموت ولده ، شقّ ثيابه ورثى حاله ، وهجم مع قواده على جنود إيران فتطاحنوا وتصاولوا وذهب منهم خلق كثير مما أدى بكرسيوز شقيق افراسياب الى وقف القتال والهروب مع أخيه وجيشه قاطعين نهر جيحون الى ممالك توران . فلما

وصلوا تحصّنوا كالأسود في مقر مُلكهم ودار عرشهم .

قطع كيخسرو نهر جيحون وتابـع فتوحاته في بلاد الترك مُعطياً الأمن والأمان والعدل والإحسان لكل بلد من البلدان . ثم التقى افراسياب بمدينة كـل زريون . فتحاربا وطلب من الله تعالى أن ينصره ، وعلى عـدوه يقهره . فأنزل الله ريحاً عاصفة ذرت التراب في وجوه الأتراك . ففروا هاربين وأسلحتهم تاركين . وهرب افراسياب أيضاً وتحصن في قلعة منيعة ،ذات أبراج شاهقة وطويلة . تتصل بالجبل من جهة وبوادٍ عميق كثير الماء من جهة أخرى . فركّب عليها المناجق والرماة ، وسمّكها بالحجارة . فلما وصل كيخسرو أمام القلعة ، خيّم مـع جنوده حواليها ، ووضع رستم في الميمنة ، وفري برز في الميسرة ، وجوذرز في ناحية أخرى مُستعداً للحصار وبـدء القتال بعد رفضه السلام والمبارزة مع افراسياب .

شنّ كيخسرو الهجوم من كل الجهات . فأحـدث بذلك بلبلة في صفوف رماة القلعة ، وأشعل النار في الحطب الموضوع على بابهـا فخافوا وَذُهِلوا . وتمكن رستم من الدخول من ناحيته ، ففتح الأبواب وتدفق الجنود كالمياه في الأخـدود . فأسروا ونهبوا وحرقوا وقتلوا ، وجلس

كيخسرو على عرش القلعة بعد هرب افراسياب من باب سري مع ألف من الجنود . فحكم وعَمَّر وبالإحسان سيطر. ولما جاء الربيـــع جاءته الأخبار عن افراسياب واستنجاده بالخاقان بغبور ملك الصين . وأنه متجه اليه في جمع مُتلاطم وعسكر متفاقم . فخرج من قلعة كنك ووجَّـه عسكره نحو افراسياب . وبعد مـــدة من المسير ، تقابل الجيشان وهم على مسافة ميلين . وأرسل افراسياب رُسله لمعاودة طلب السلام ووَقْف الحرب . لكن كيخسرو رفض ، وأراد متابعة القتال ، وطلب من جنده عدم المجيء بأي حس أو حركة حتى يشعر عدوهم أنهم نائمون ومن كثْرة الشرب يترنحون . ففعلوا وعلى أمره نزلوا . فلما فاجأهم افراسياب انقضوا كالصقور الباسلة في السماء الشاسعة . وكالمرة الأخيرة أذرى الله في عيونهم رياحاً ترابية ، وفي نفوسهم انهزاماً مدوياً . فطلبوا الأمان بعد هرب افراسياب الذي توجـــه مستنجداً بملك الصين ، فلم ينجده ، وعن ممالكه أبعده . فرجع سائراً الى بحر قزوين . فركبه حتى وصل الى قلعة كنك دز ، فنزل فيها وتحصن ببعدها عن مكان كيخسرو .

اهتمّ كيخسرو بالأغنام التي غنمها من بلاد افراسياب فحمَّل الكثير منهـــا على ظهور الفيلة والبغال والثيران الى

ملك جده كيكاوس مع جيو بن جوذرز الذي ما ان وصل
الى كيكاوس حتّى خلع عليه الهدايا ، وأنزل أسراه ومنهم
جُهن بن أفراسياب أحسن الأماكن ، جاعلاً في خدمتهم
مئات الخدم والحشم . ثم رجع جوذرز الى كيخسرو وأبلغه
رسالة جده ففرح بها ، ورحل عن كنك منصّباً مكانــه
كستهم بن نوذر . فوصل سياوخش كرد المدينة التّي بناها
والده . فبكى وتضرّع ومن كأس الصبر تجرّع ، وأكمل
طريقه الى بــلاد الصين ، فاستقبلوه مُرحّبين نازلاً في
ضيافــة ملك الصين ثلاثـة أشهر . ولما أراد أن يمر من
مُكران ، منعه ملكها ، فسار بجيش عظيم متضرعاً الى
الله العليم . ففتحها وسبى أهلها وقتل ملكها . ثم اكمل
طريقه واضعاً مكانه اشكس . فلما وصل ساحل البحر .
أخذ مؤونة لمدة سنة : فأبحر مع جنوده بعون الله ، بزوارق
كبيرة . ورأوا في البحر عجائب كثيرة . وظــلّ البحر
هادئاً على غير عادته . وبعد سفر سبعة أشهر في البحر .
وصل البر . فرأى بلاداً عامرة وجنات ساحرة . وأطاعـه
أهل تلك المدن فسلمّ زمامها الى جيو . ثم قصد قلعــة
كنكدز مكان أفراسياب قاصداً احتلالها وقتل سكانها .

هرب افراسياب خفية بعدما علم بوصول كيخسرو الذي
دخل القلعة . فسلّمت له . وأقام فيها سنة في بساتينها

النــاضرة وحدائقها الزاهرة وعيونها المتفجرة وأزاهيرها المتفتقة . ولما كان الارتحال إلى بلاد توران . رجع على نفس الطريق ، متنقلاً من البر إلى البحر ، ومن البحر إلى البر . فوصل قلعة كنك بعد نزوله ضيفاً على رستم في ممالك الصين ، وأخذه الكنوز المخبأة في مدينة ابيه سياوخش كرد . ففرّقها على قواده وأمرائه وأفراد عسكره . وظلّ يسأل عن أخبار أفراسياب طالباً من الله تعالى أن ينصره على عدوه . ثم إنه اشتاق إلى لقاء كيكاوس فسلّم الممالك التي فتحهــا إلى كستهم بن نوذر ورحل عنها إلى ايران مُحمّلاً بالأثقــال والغنائم من الذهب والجواهر والمسك والعنبر ، والملابس والمفارش والأسلحة والعُددَ وسائر ما يُجلب من أرض مُكران والصين ، إلى غير ذلك من الخيل والجواري والغلمان . فمرّ بالسغد وبُخارى وبلخ والطالقان ومرو الروز والري وبغداد . وكان في كل مدينة يمر فيها ، تُنثر عليه الجواهر والذخائر ، فيُقابل أهلهــا بالملاطفة والإحسان والعدل والأمان . ولما وصل إلى فارس مقر مُلك كيكاوس ، استقبله بالعناق وبإقامة المآدب والمقاصف . فنزلوا يشربون وإلى الحسان يستمعون . وهو ما زال على وعده في الانتقام من افراسياب .

أما هذا الأخير ، فإنه لما هرب من القلعة . تاه في البراري والسهول وجاءَ إلى بردعة (من مدن أرّان في الشمال الغربي من أذربيجان) واختبأ داخل مغارة في إحدى جبالها . فوجده ناسك متعبد من أولاد افريدون يسمى هوم ، الذي ما أن سمع صوته يبكي ويندب حتى ذهب اليه وكبّله وفي كهفه وضعه . وبينما هما ذات يوم على ساحل البحر ، فكّ وثاقه بعدما رجاه . فقفز افراسياب في البحر وتوارى عن النظر . واتفق أن جوذرز بن كشواذ وولده جيو خرجا خلف الملك كيخسرو — الذي ذهب مع جده كيكاوس إلى بيت نار في أذربيجان ، يتضرعان إلى ربهما متخذين النار قبلة — فوصلا إلى ذلك الساحل ، فقصّ عليهما الناسك خبر افراسياب ، فنقلا الخبر بدورهما إلى الملك كيخسرو الذي جاءَ وظلّ مع الناسك زمناً طويلاً حتى تمكن من افراسياب وهو في البحر . فقيّده وأخذه وفي دار ملكه أقرّه . ثم قتله بعدما حاكمه مع أخيه كرسيوز . وهكذا انتقم لدم والده سياوخش . فهنأ له المقام ونظّم الأحوال وحكم بالعدل والإنصاف بعدما عاد إلى فارس .

٨

موت البطلين

قد يكون من الأمر العجب . والاعتزال عن الدنيـــا وَجَب . فإنه لما مات كيكاوس وأوصى بكل شيء إلى حفيده كيخسرو . وهدأت الامور وانتظمت الأحـــوال . أخذ كيخسرو يفكر في أمور حياته ويوم مماته ، فبَعُد عن النـــاس واختلى بربه أياماً يصلّي ويتعبَّد . فلما خرج رأى الجمع من حوله في حيرة وسؤال . وهذا يسأل ذاك: « ما حلّ بِمَلِكِنا . هل أصابته لوثة ، أم الشيطان على عقله استولى ؟ » . فهدّأ من روعهم، وأسرى عن خاطرهم وأخبرهم أنه ينوي الحضور بين يدي الله تعالى . ثم احتجب مرة ثانية وطال احتجابه . وزاره الملاك في نومه وأخبره عن قُرب موته . فخرج في اليوم الثـــاني وأخبر أصحابه

وأحباءَه أنه ينوي اعتزال الحكم والمثول في رحمة الله تعالى. فلطموا وندبوا ولم يصدقوا. لكنه أقنعهم وفي مجلسه جمعهم وأعطى ممالك نيم روز وسائر ما يُضاف اليها ويُعدُّ من نواحيها إلى رستم، وممالك قُم واصبهـــان إلى جوذرز، وممالك خراسان إلى طوس. ونصَّب لهراسب على العرش والتاج بدلاً منه. فاحتجَّ بذلك «زال» لوضاعة أصله وعدم معرفة نَسبه. لكن كيخسرو أقنعه، وعن انتماء لهراسب لأوشهنج أخبره. فرضوا به ملكـــاً عليهم، وحيّوه بتحية الملوك، ونثروا على تاجه الجواهر.

فتح كيخسرو خزائن المـــال، وفرّقها على كل فقير ومحتاج. وأمر ببناء ما هدّمه افراسياب. ثم ودَّع أهل بيته وعشيرته، وخرج مع أكابر إيران إلى جبل فأقاموا عليه أسبوعاً. وخرج في أثره ألوف الرجال والنساء يبكون ويضجون، وإلى العودة إلى عرشه يتضرعون. لكنه طلب منهم العودة. فعاد زال ورستم وجوذرز. أما البقية، فلم يقبلوا. وساروا معه حتى وصلوا إلى عين ماء. فقام وودّعهم وأمرهم بالرجوع لأن الثلج سيسد الطريق فيصبحون كالغريق. ثم ناموا. ولما طلعت الشمس، فتشوا عليـــه قرب العين فلم يجدوه، وفي الصحاري والجبال لم يلقوه.

فرجعوا إلى تلك العين ، وتناولوا شيئاً كان معهم ، وناموا ساعة . فأمطرت السماء وتغيرّ الهواء . فهطل الثلج وغطى المرج . وظلّ يهطل حتى هلكوا أجمعين . أما الثلاثة الذين نجوا وعلى الجبل بقوا . فأخذوا ينتظرون لعلهم يرجعون. فلما أدركوا ما أصاب البقية . أخذوا في البكاء والعويل . وطفق جوذرز يضرب نحـــره وينتف شعره على فقده كل أولاده . ثم رجعوا إلى لهراسب فرضوا بملكه وحُكمه ، وأجلسوه على عرشه في يوم المهرجان . فبايعه جميع الأمراء، ودخلوا في طاعته . واستطاع بعقله وذكائه أن يحكم بالعدل والإنصاف على سير الملوك الذين استلم التاج منهم . وكان له من بنت كيكاوس ابنـــان كأنهما قمران هما كشتاسب وزرير .

كان كشتاسب طموحاً وشجاعاً . فلما انتشى مرة من الشراب ، طلب من والـده أن يسلمه زمام الحكم . فرفض الوالد لحداثة سن ولده . فما كان من الأخير إلا أن هرب خارجاً عن طـــاعة أبيه . فتوجـه إلى الهند مع بعض من الجند . فألحقه والده بأخيه زرير الذي التقـــاه في أرض خضراء قرب كابل ، يصطاد الحيوانات . فتحادثا وتناوشا. ورضي كشتاسب بالرجوع مع أخيه إلى حُـكم أبيه . ولأنه

رجع على مضض . عـــاد وهرب وحده متجهاً نحو بلاد الروم . فقطع البحر دافعاً بعض المال لرجل يُدعى هيشويه هو وكيل السفن . ونزل بمدينة هي مستقر عرش قيصر ملك الروم . فلما ضاقت به الحال أراد أن يعمل ، لكنه رُفِضَ كاتباً لشكله القوي ، وحارس خيل لأنه أجنبي ، وحداداً لضربته العنيفة . فلما يئس خرج إلى ضيعة يستظل بأشجارها ، ويشرب من مائها ، فلاقاه هنـــاك رجل من أهل تلك الضيعة من ذرية افريدون.فاستضافه وفي بيته أقامه.

وكان لقيصر ملك الروم ابنـــة في سن الزواج تُدعى كتايون . وكان من عادة بناته إذا أردنَ الزواج أن ينتخبن أزواجهن بأنفسهن . فاختارت كتايون كشتاسب زوجاً لها من بين ألوف الرجال لرشاقـة قده وجمال وجهه . فتخلى والدها عنها وطردها ، لأنها اختارت زوجـاً بعيد الحسب والنسب عن الملوك . فأخذهـــا كشتاسب وعـاشا في بيت صديقـــه ، وكان كل يوم يذهب إلى الصيد ، فيصطاد كثيراً يُعطي منه هيشويه ويفرّق الباقي على أهل تلك الضيعة .

أما الابنة الثانيـــة . فقد اشترط قيصر على ميرين أحد أمراء الروم ، وسليل سلم بن افريدون ، وطالب ابنتـــه الثانية ، أن يقتل الذئب الأغبر ، ذا القرن الأكبر ، حتى

يقبل به زوجاً لابنتـــه . فاهتمَّ واغتمَّ ، وفي الكتب راح منجماً . ورأى في كلام القدماء ، أنه يأتي إلى أرض الروم رجلٌ من إيران ، يتزوج ابنة قيصر ويقتل سبعَيْن عظمت أذيتهما للناس . فاتصل بكشتاسب زوج الابنـــة الأولى عن طريق هيشويه . وأعلمه عن حالـه وخبر قصده . وطلب منه قتل الذئب الأغبر . فقبل مرحـبـــاً وللمهمة مدبّـراً . ونازل الذئب الأغبر كأنه الأسد الأكبر . فقتله بسيف سلم الذي أعطاه إياه ميرين ، وأخذ نابين من أنيابـه وأعطاهما لميرين فسُرَّ كثيراً ، ومن الهدايا أعطاه وفيراً . فقبلهـــا آخذاً سيف سلم وفرساً شهباء ، واهباً الباقي لهيشويه .

عرف أهرَن ، أمير آخر مـن أمراء الروم ، وطالب الابنة الثالثـة لقيصر ، بأمر ميرين . فراسله ، وعن أمر شجاعته المفاجئة سأله . لأن قيصر اشترط عليـــه أن يقتل الثعبان الضخم في جبل سقيلا ، ويريح الناس شره ليزوجه ابنته . فلما عرف ، اتّصل بكشتاسب عن طريق هيشويه . فرحَّـبَ قابلاً ، وذهب مقاتلاً الثعبان . فضربه بسهم ثم برمح . فخرَّ الثعبان صريعـاً ، ينفث اللهب والسم ، ثم أخذ نابين من أنيابه وأعطاهما لميرين وبدوره أعطاهما لقيصر فزوجه ابنته .

في يوم ذهب كشتاسب إلى ميــدان الملك مُشاهداً ، ومن فرط حماسته نزل مقاتلاً . فَغَلَبَ كل مــن تقدم لمنازلته . فتعجب قيصر من حاله ، وأرسل في أمره . فلما حضر ، سأله وجاوبــه . وعرف منه أنــه زوج كتايون وقاتل الذئب والثعبان . فأنزله في قصره ، ووهبه من كرمه حتى أصبح الفارس الأول عند قيصر . ثم أخذ يرسله قائداً على عسكره ، فتوجـه أول مــا توجه لمقاتلة الياس ملك الخزر الذي تهرَّب من دفع الخراج . فواجهــه في جيش ضخم حمى قلبه قيصر وولده . وهجم كشتاسب على الياس بطعنة أذرته عن فرسه . ومن ثم من بين فرسانه . وركض به مُسلّماً إياه إلى قيصر . ثم زحف ثانيــة فزلزل مواقع عدوه ، وبدّد جموعهم ومزّقهم كل ممزق .

وأراد قيصر من ملك إيران أداء الأمان ودَفْع الخراج، وبعث اليه برسول يبلغه عن عزمه على القتال في حال عدم دفع الخراج ، وهـدده بفرخزاد (اسم كشتاسب في بلاد الروم) الذي سيدوّخ ديـاره وسيملك بلاده . فلما وصل الرسول ، وطلب المثول ، أدخلــه واستقبله وعن بطلهم سأله . فأجاب أنه كزرير شبهاً خلقاً وشمائلاً . فعرف أنه كشتاسب ابنه ، وأرسل زرير خلفه . طالباً منه تسليم التاج

والعرش إلى كشتاسب . فلما وصل زرير إلى حضرة ملك الروم . دخل عنده ، وعن عزم أبيه على الحرب أخبره . فلما عرف كشتاسب بما نووا ، وعلى الحرب صمموا . زار زرير في معسكره وعرف منه قصدَ أبيه في تسليمه العرش والتاج . فصالح والده ، ونزل قيصر وأعوانـــه في خدمته . أمـــا كتايون زوجتـــه ، فبالغ والدها في تكريمهـا وأرسلها إلى زوجها مع هداياها وجواريها .

استلم كشتاسب مُلكَ أبيه الذي انقطع عن العالم مُتعبداً إلى الله تعالى . فمات بعدمـــا أقام في بيت الله مدة ثلاثين سنة . وعلى سيرة أجداده ، بسط كشتاسب العدل والأمان والخير والسلام ، وفي عهده ظهر زَرَادَشت ، يدعو إلى دين جديد ذي حق شهيد . فآمنَ به كشتاسب وعمل على تثبيت دينه في كل ممالكه . وبنى للنار بيوتاً كثيرة، وجعل لها قباباً رفيعة . ثم غرسَ عـــلى باب بيت نار بكشمير شجرة سرو . فعَلَتْ واستغلظت وفي السماء ارتفعت . فبنى عليها قصراً منيعاً ، جعل سقفه من ذهب ، وأرضه من فضة ، وترابـــه من عنبر . ورصَّع حيطانـــه بالجواهر واليواقيت الزواهر . وأمر جميع الملوك والأمراء بالمصير إلى خدمـــة هـــذا السرو ، وباستماع مواعظ زرادشت ، والدخـول في

دينـــه ، وتـَرك عبادة الأصنام والأوثان . لكن ارجاسب ملك الصين لم يقبل الدعوة ، وعلى عرشه رفض واستعلى . وبعث إلى كشتاسب رسالة يعنّفه ويوبّخه وعلى دينه الجديد يؤنّبه ، ويهدده بجحافل العسكر إن لم يرتدع ويرجع .

ردَّ كشتاسب على ارجاسب برسالة مُدبجة ، وبلغــة الحرب مصممة . كتبها وزيره العاقل جاماسب ، وشقيقه زرير وابنه اسفنديار من بنت قيصر الروم، فما أن قرأها ملك الصين حتى هبَّ واقفاً والعسكر جامعــاً . فألّف جيشاً عظيماً ، أعطى قيادة جانبيه الى أخويه كهرم واندريمان، ورأسه لأمير يُدعى خشاس ، ولتركي طاعن في السن ، أفنى عمره في الغشم والظلم وتربـى في القتل والنهب .

سمع كشتاسب بخبر الجحافل ، فأمر وجمع ، ولنداء الحرب سمع . وقابل ارجــاسب في جمع متلاطم . وبقوا على القتال ، أسبوعين بدون ارتياح حتى انهزم ارجاسب، تاركاً أرض المعركة لجنوده الذين طلبوا الأمان . وكانت حصيلة المعركة كما تنبأ الوزير جاماسب . فقد قُتل اردشيز وشيذاسب ، ولدا كشتاسب ، وزرير وابنه بعدما أبلوا بلاءً حسناً .

أما اسفنديار فقد صار البطل القهّــار . فسلمه والده

زمـــام العسكر . ثم توجه ودار في جميع الأقاليم حتى إقليم الروم والهند واليمن مُثبّتاً الدين الجديد ، داعياً إلى اتباع تعاليم زرادشت . فاستوت له جميع الممالك ، وأطاعته كل الخلائق . لكن حاله لم تستمر ، وأموره لم تستقر . فقد جاءَه جاماسب بينما كان مع أولاده الأربعة . فأخذه وإلى والده أوصله ، الذي قيّده وكبّله وبالسلاسل غلّله ، وبقلعة شيذر وضعه ، بعدما نمي اليه من رجل يُدعى كرزم بأنه يحضّرُ للاستيلاء على المُلك ، وَعزْلِ والده عن الحلق . ثم رحل كشتاسب إلى زابلستان لزيارة رستم بن دستان .

لما علم ارجاسب برحيل كشتاسب ، وبقاء لهراسب والد كشتاسب في بَلخ يتعبد مع جماعة له من عَبَدَة النار . وجّه ابنه كهرم على رأس ألف فارس من نخب العسكر . فوصلوا بَلَخ وأخذوا في القتال ، ناهبين سارقينَ وكل بيوت النار مهدِّمين ، ويُقال إن زرادشت قُتِل في هـــذه الغارة . فخرج اليهم لهراسب بالرغم من ضعفه وشيخوخته عـــلى رأس ألف رجل استطاع جمعهم من أهل البلد . لكنه مات برشقة سهم بعد أن أبلى بلاءً حسناً . فبلغ الخبر كشتاسب بواسطة امرأة استطاعت أن تهرب مـن براثن ارجاسب . فحشد واستعدَّ ، وسار حتى وصل بلخ وباميان . فاصطدم

الجيشان ودارت الدائرة على الايرانيين وَقُتِلَ منهم كل أولاد كشتاسب . فرجعوا الى الوراء واحتموا بجبل كان هناك . فحاصرهم ارجاسب مستعداً للوقعة الثانية . وأرسل كشتاسب ، الوزير جاماسب بعدما اطّلع على الفلك الى اسفنديار ، يفكُّ قيده ويحلُّ أسره ، طالباً مساعدته في القضاء على اسفنديار . وهكذا كان . فرجع جاماسب مع اسفنديار بعدما حثه على مساعدة أبيه والانتقام من قاتل إخوانه وسابي أخواته . فوصلا الى الجبل واخترقا حصار ارجاسب . فانتعش قلب كشتاسب ، وعرف انه منتصر على ارجاسب.

علم هذا الأخير باختراق جيشه ، وقتل طلائعه . فصمم على الهرب والاكتفاء بما حصل . لكن رجلاً من أمراء الصين وقوادها يُسمّى كركسار حثه على البقاء والثأر لقوّاده العظماء ، الذين قتلهم اسفنديار . فبقي وعلى المعركة نوى. ولما طلعت الشمس رُتِّبت الجيوش الى ميامن ومياسر . ثم انقضُّوا على بعضهم البعض ونزل اسفنديار كالفيل الهائج والبحر المائج بطشاً وسفكاً حتى قبض على كركسار، فأسره ولأبيه أوصله . ثم رجع يكرّ ويفر حتى هرب ارجاسب تاركاً جنوده يطلبون الأمان من الملك كشتاسب ، الذي دخل مع اسفنديار الى بيت نار . فأقاما فيه أسبوعاً ، يتعبّدان ويشكران

ربهما سبحانه وتعالى على ما أوفره عليهما من تلك النعمة .

قَرَّرَ اسفنديار اللحاق بأرجاسب وقتله في قلعة روئين دز التي هي مكان عزه ، ومستقر عرشه وسلطنته . لذلك استعان بكركسار ليدله على الطريق . فلما سأله واستأمنه وبإطلاق سراحه وعده . أجابه قائلاً : « للقلعة طرق ثلاث . واحدة طويلة لكنها عامرة وآهلة . وثانية متوسطة لكنها معشوشبة ومياهها عذبة . وثالثة قصيرة لكنها قاحلة وناضبة وهي المعروفة بهفتخوان (أي سبعة منازل أو خطوب) . يلقاك في أول منزل ذئبان كأنهما فيلان قوة وشكلاً ، تكاد لضخامة أبدانهما وشراسة منظرهما أن تخر صريعاً . وفي المنزل الثاني يعترضك سبعان كأنهما ناران تلهبان . وفي المنزل الثالث يتصدى لك ثعبان كأنه التنين شكلاً وقوة ، ينفث النارَ لهباً ويستنزل العقاب سهلاً . وفي المنزل الرابع تلقاك ساحرة شمطاء تُريك البر بحراً والبحر براً . وفي المنزل الخامس ينزل اليك طائر يُعرف بالعنقاء كأنه جبل يمر في الهواء . وفي المنزل السادس ، ينزل عليك غضب الطبيعة ، فمن البرد القارس إلى الحر اللافح ، ومن ثلج الشتاء إلى رمال الصحراء ، وفي المنزل السابع ، ترى القلعة كأنها سراب ، مُحاطة بالأبراج الشاهقة

والأسوار العالية ، والمياه والجبال من حولها كأنها جنة امتنعت على القاصدين » .

صمم اسفنديار على اتباع طريق هفتخوان لأنها أقصر من غيرها . وكان قبل وصوله إلى كل منزل يترك أخاه بشوتن خلفه مع الجنود ، وبعد عناء كل منزل ، كان يرتاح شارباً وينزل شاكراً ربه تعالى . فلما سار ووصل المنزل الأول ، اعترضه الذئبان كأنهما غمامتان ، فرماهما بسهامه ومزقهما بسيفه شر تمزيق . أما السبعان فشقهما بالسيف إلى نصفين من مفرق رأسهما إلى زورهما . وما أن وصل إلى المنزل الثالث ، حتى أمر النجارين بصنع عجلة بفرسين ركبوا في أطرافها نصولاً محددة ، ووضعوا عليها صندوقاً كبيراً ، اختبأ في داخله ونزل من رأس الجبل إلى السهل فبلعه الثعبان ثم لفظه بعدما نشبت النصول المركبة في حنكه وفكه . فخرج من الصندوق سالاً سيفه ، شاقاً دماغه ، فمات بعد أن نفث السم زعافاً .

أما الساحرة فقد تبدت له بصورة باهرة . فلما جالسها وسقاها، خنقها بسلسلة ، استحالت بعدها إلى سبع ثم إلى عجوز شمطاء . فوضع سيفه برأسها وقتلها . ولما وصل المنزل الخامس رأته العنقاء على عجلته . فنزلت من السماء،

ناشبة مخالبها في النصول . فضعفت قواها وسقطت . فاستلّ سيفه ومزّقها . ولما وصلوا إلى المنزل السادس ، داهمتهم الطبيعة . فخرّوا ساجدين ، وتضرعوا إلى الله مبتهلين ، ودعوه دعوة الصادقين . فسَكَنَ الهواء وانجلت السماء . فلما أشرفوا على القلعة بعد عبورهم بقيادة كركاس ، بحراً لا قَعرَ لـه ولا ساحل ، قتل اسفنديـار كركاس لأن لا مأمن منه . وتقدم سائراً ، مُفكّراً بالحيلة التي ستجعله يستولي على القلعة . فتنكر بزي تاجر وحمل معـه الذهب والجواهر والثياب والحراير . وأحضر مائة وستين صندوقاً . وضع في كل صندوق رجلاً ،وسوماً بالشجاعة والجرأة بعدده وسلاحه . ودخل القلعة بعدمـا اتفق مع أخيه على الهجوم إذا رأى الأخير ناراً لاهبة فوق سور القلعة .

تهافت الناس على الشراء من اسفنديار بعدما سمح لـه ارجاسب بالبيع والشراء . فـأهداه اسفنديار الحُلى الثمينـة والجواهر النفيسة . وسمح له الملك بوضع الصناديق داخل داره . ومن كثرة ترداده على ارجاسب ، أصبح صديقاً له، وعن أحوال اسفنديار وكشتاسب سأله . فشوّه أمورهما، وكفّ لسانه عن سؤالهما . وانتهزها اسفنديار فرصة . فدعا الملك وأعوانه إلى وليمة يقيمها على سور القلعـة لضيق منزلـه .

فرحّبوا وعلى العشاء نزلوا . فشربوا وثملوا ثم انصرفوا . فقام اسفنديار وأشعل النار فوق سور القلعة . فما أن رآها بشوتن حتى هجم بعسكره . فخرج جنود ارجاسب وأهل القلعة يصدّون الهجوم ويدافعون عن الحصون، فما استطاعوا . ولما أرادوا الرجوع إلى داخل القلعة كان اسفنديار قد أوكل رجاله الذين في الصناديق أمر حماية الأبواب . وذهب مع فئة منهم إلى باب ارجاسب فنازله وضاربه ثم قتله واجتزّ رأسه ورماه إلى جنوده . ففروا هاربين وعن قوة عدوهم متكلمين .

أما كُهرم واندريمان شقيقا ارجاسب اللذان أسرهما فقد صلبهما على باب القلعة ونزل هو وجنوده قتلاً ونهباً وأسراً في أطراف توران ، ورجع الى والده في إيران عن طريق هفتخوان ، مُحمّلاً بما خفّ حمله وغلا ثمنه بعدما فرّق ووزّع على العسكر حتى أغناهم وزادهم في ذلك على مُناهم . وبهذا يكون اسفنديار قد ثأر لجده لُهراسب ولإخوته من أبيه كشتاسب .

شكا اسفنديار ظلم أبيه الى أمه . وأخبرها بحديث والده بتسليمه العرش والتاج يوم الثأر للهراسب . لكنها نهته وعن التفكير بالأمر ردعته قائلة : « ما لك بالعرش والتاج ،

والممالك والخزائن تحت حُكمك وشور بنانك » . لكنه لم يرتدع ، وعن الأمر لم يرتجع . وتلاسنَ ووالده رافضاً أن يسير الى زابلستان لتأديب رستم بن دستان، وحثه على دفع الجزية والخراج .

لكنه عاد وسار بدون اختيار ، خصوصاً بعدما وعده والده بالتاج والعرش إذا أدَّب رستم . فلما وصل الى هِرمند خيَّم هناك وأرسل رسالة مع ولده بهمن الى رستم . يذكّره بالعهود السابقة والأيام التالدة ، يوم كان يخدم عند الملوك فارساً ، يحثه على دفع الجزية والانتظام في دفـــع الخراج للملك كشتاسب ، ملك الممالك في المشارق والمغارب . فلما وصل ، استقبله «زال» وأخذه الى ولده رستم المخيّم على حافة نهر . فلما وصلا ، أنزله رستم واستضافه ومن طعامه استزاده . فتعجب بهمن من كثرة أكله ، وعن ضخامته وقوة شكله لم يعـــد يسأل . ثم شيّعه رستم راجعاً الى أسفنديار . مُعطياً إياه رسالة ، متمنياً فيها مشاهدته وخدمته، عاتبـــاً على مخاطبته بهذا الكلام ، طالباً استضافته ومن ثم التوجه معـــه إلى حضرة كشتاسب ، والمثول في حضرته للاعتذار من صاحب الجلالة والوقار .

التقى البطلان على حافة النهر . ووعد اسفنديار تلبيـة

دعوة رستم ، الذي جهز السماط بأفخر الأطعمة والشراب . لكنه تأخر عن المجيء فقصده رستم . فطفق يعتذر محتجاً بالحر الشديد والطريق البعيد . ثم جلسا يتسامران وعن النسب والبطولة يتنافسان . فطلب اسفنديار من رستم النزول عند رغبة الملك وأخذه مُقيّداً اليه ، واعداً إياه بعدم مسه أو لمسه ، حتى يتسنى له الحصول على التاج والجلوس على عرش العاج . لكن رستم أبى وعلى الحرب نوى . وخرج غاضباً وإلى مكانه راجعاً . ثم أخذ يحضّر جيشه ويجهز نفسه . ولما حانت الساعة . تقدم البطلان بعدما أمرا جنودهما بالوقوف على جنب والإمساك عن الحرب . وتبارزا بالرماح والسيوف ومن ثم بالعمد والدبابيس . وظلا على سجال حتى تشققت الدروع وتمزقت السروج . واستطاع اسفنديار بنشابة من الماس أن يصيب رستم ورخشه عدة جروح ، خصوصاً بعدما اعتدى جنود رستم على جنود اسفنديار وقتلوا ولديه. وبحيلة استطاع رستم أن يأمن جانب اسفنديار، ويرجع إلى مقره ومركز عسكره . فتلقاه زال (دستان) ورأى النصال . فأخذ ريشة العنقاء ، وحرقها للحال . فحضرت ، وجراح رستم ورخشه طَبَّبَت . ونصحته بطلب السلام ووقف الحرب . لكن اسفنديار رفض ، وعلى المبارزة ركض . فما كان من رستم إلا أن رماه بالنصل

الذي ركبه على قضيب شجرة أعطته لـه العنقاء . فأصابه في عينه . وأوقعه من على فرسه . وأخذ يحتضر نادماً على تَسرعه واضعاً اللوم على والده ، معطياً بهمن ولده إلى رستم لتربيته تربية جديرة بالملوك . ثم شهق شهقة طويلة ومات .

أرسِلَ الجثمان إلى مملكة إيران على ظهور الجمال . فاستُقبل بالعويل ورش الرياحين . ودخل بشوتن على كشتاسب دون أن يسجد ويقبل الأرض وقال له : « الآن انقصم ظهرك ووهى أمرك ، وستجد جزاء فعلك ، وتذوق وبال ظلمك حين أسلمت والدك للموت متمسكاً بهذا التاج والعرش » . ثم لَعَنَ جاماسب ووبخه على عقله ومشورته وسفاهة رأيه .

صار بهمن كالملوك في الآداب وحسن السلوك، وطلب منه جده أن يرجع هو ورستم الذي سامحه بعدما عرف بتضرعاته في طلب السلام من اسفنديار قبل الممات . فرجع ملكاً وسُدة العرش متسلماً . وكان جده من شدة حبه لـه ، لا يفارقه ولا يصبر عنه ساعة ، ولا يطيق البعد عنه لحظة .

ولما كان لا بد من المنون ، ولو ساورتنا الظنون . ولكل شخص نهاية ، كما له بداية . فإن رستم وإن عاش

طويلاً ، فإن له في الممات سبيلاً . وكيف شاءت الظروف أن يقتل على يد أخيه شغاذ (من والده زال بن سام) الذي تربى وحيداً عند ملك كابل بعيداً . فإنه لما وُلِدَ ، اطّلع والده على سر الفلك . فعرف المقدّر والمصير الذي لا يتغيّر . فأرسله عند ملك كابل ليربيه وعلى حُسن السلوك يمضيه . فلما نشأ وترعرعَ ، ورأى منه ملك كابل أمارات الأبهة والجلال . صاهره ومن ابنته زوجَه . ولما رأى أن رستم لا يحفل له وكالغريب يعامله . اتفق مع عمه والد زوجته أن ينقطع عن دفع المال للإيقاع بابن زال . ورسم معه خطة تقضي بأن يشتم أخاه في وجهه وعلى مَسمعَ من صحبه . فينهض هو مؤنّباً ومساعدة رستم طالباً . وهكذا كان . فلما وصل رستم ديار كابل، استقبله ملكها طالباً السماح ، حانياً رأسه كالتمساح . ثم أخذه إلى أرض شاسعة ، للصيد سانحة . فلما ساروا ، وقع رستم ورخشه ومن كان معه في حفرة مليئة بالنصال والحراب . فتمزق جلده ، وتشقق رخشه . وعرف أنها مكيدة من أخيه وملك كابل . فطلب قوسه ونشابه ليذود عن نفسه السباع قبل أن تطلع روحه . فأعطاه شغاذ ما طلب . فما كان منه إلا أن شدّ قوسه ضارباً شُغاذ ، الذي احتمى وراء شجرة جافة ، فنفذ القوس فيها وخاطه معها .

فطلعت روحه قبل روح أخويه رستم وزواره .

عَرفَ فرامرز بن رستم بمصير أبيه . فذهب إلى كابل بجيش كثيف . وأخاط جراح عمه وأبيه ورخشه . ووضع رستم في تابوت عظيم وضِعَ على سرير من الذهب . وأقيمت عليه المآتم في زابل ، حتى لا تكاد تسمع غير صوت النائحات والنادبات . ثم هجم فرامرز من زابل على كابل . فأسر ملكها وأربعين نفساً من أقاربه . ثم ذهب إلى الموضع الذي قُتِل فيه رستم . فعلّقه من جلد ظهره على نصل من أنصال تلك الحُفر . وحرق أقاربه وشُغاذ ، ونزل قتلاً وذبحاً في أهل كابل . أما والدة رستم روذابة فقد شقّت عليه الثياب وأمسكت عن الطعام والشراب . وحاولت الانتحار . لكنها عادت وأقلعت ، وبأمر ربها رَضِيت .

٩

الملوك الأربعة

مات كشتاسب بعدما حكم مائة وعشرين سنة . فسلّم الحكم قبل مماته إلى حفيده بهمن . جاعلاً له عمه حافظ سره ومشير أمره .

فلما استلم ، وعلى العرش حكم . جمع القوّاد والأمراء طالباً منهم الموافقة على الثأر من قاتل أبيه ، متخذاً ثأر الأبناء للآباء حجة له . فتشاوروا ثم وافقوا . فخرج بجيش عظيم نحو بلاد زابل . فلما وصل ، لقيه دستان طالباً الأمان والشروع في السلام ، مذكّراً إياه بفضائل أولاد زال على ممالك إيران . لكنه ازداد حقداً وتصرف غضباً . فقيّد الشيخ الجليل ووضعه في سجن ظليل . وهجم على قصوره سارقاً من كنوزه . ثم أطلق أيدي أصحابه في

الأسر والنهب في جميع نواحي زابل . فلما جـاء فرامرز (ابن رستم) لينجد جده ويخلّص ملكه . التطم الجيشان كأنهما أسدان . ثم هبت ريح عاصفـة أذرت الرمـال في وجوه عسكر فرامرز . فولّوا الأدبار تخلصاً من الغبار . وبقي فرامرز وحده حتى أُسِر وصلب ومات رشقاً بالسهام. ثم أوقف بهمن أيدي جنوده في أرض زابل بعـد تشفع بشوتن ، وأطلق سراح دستان بعدمـا ندم على سوء فعله وسرعة غضبه . ثم قفل راجعاً إلى إيران . يأمر وينهى ، ويمنع ويبني . ومن آثاره قرية باقية تُعرف بهمينيا .

ثم إنه ولّى ابنته ُهماي الملقبة جهرآزاد ، لمـا حبلت منـه وعن وليده بشّرته . أمـا ولده ساسان فهرب إلى نيسابور وتزوج هناك كاتماً نسبه ، حافظاً سره . ورزق ولداً سماه ساسان أيضاً . ثم صار فقيراً يرعى بين تلك الجبال والشعاب فيقال دو جد الساسانية .

استلمت هُماي العرش والتاج بعد بهمن الذي حكم ستين سنة . فلما جاءها المخاض . ولدت صبياً قالت إنه مات . واهتمت بأمور ملكها ، وأحوال رعيتها . فساست بالعدل والإحسان والرأفة والأمان . ولما بلغ وليدهـا ثمانية أشهر وضعته في علبة مملوءة بالجواهر وشدّت على عضده جوهرة

لها قيمة . ثم أمرت ، فألقي في الفرات ، حتى وجـده قصارٌ كان يغسل الثياب على حافة النهر . فأخذه فرحاً ، وعن حزنه على ولده الميت جعله مرحاً . وانتقل مع زوجته ولقيطه الى بلدة ثانية بعدمـا أسماه داراب لأنه وجده في الماء (درآب تعني في الماء) . فنشأ وترعرع وعن مزاولة مهنة أبيه تمنع ، فتعلم الدين والأدب والفروسية ، وفـاق أقرانه بوصاية العزة الإلهية . ودخل في عسكر رشتواذ قائد الملكة هُماي ، بعدما عرف كيف وُجِد من والدته التي أخذ منها بعض الدراهم . فاشترى بثمنها فرساً وعدة رثة رخيصة .

ارتحل رشتواذ لمحاربـة الروم بعدما استعرضت هُماي العسكر . فلفت انتباهها منظر داراب وانتقدته على الثياب التي كـان يلبسها لأنها لا تليق بفارس مثله . فلما وصلوا أرض الروم . أظلمت السماء وأمطرت . فاختبأ داراب في بيت خراب يكاد يقع . وسمع رشتواذ هاتفـاً يأمر البيت الخراب بعدم الانقضاض لأن تحته ملكاً كبيراً ، فتعجب من ذلك واستدعى داراب الذي ما ان خرج حتى وقع البيت على الأرض . أخبر داراب رشتواذ عن أصله ومولده . فأمر بإحضار القصّار وزوجته والجوهرة التي كانت عـلى

عضده . ثم انتقلوا إلى قتال جيش الروم . فانقضّ داراب كالصقر الباسل والليث الكاسر . وقتل منهم خلقاً كثيراً حتّى اضطر ملك الروم إلى طلب السماح ، والتزام دفع الخراج . فبعث رشتواذ رسالة إلى هُماي يبشّرها بالانتصار، ويخبرها بأحوال داراب مرسلاً الجوهرة المذكورة التي وصلته بعد حضور القصّار وزوجته . فلما رأتها ، عرفت الحقيقة . وعلمت أن ذلك الشاب الذي أخذ بقلبها يوم العرض لم يكن إلا ولدها . ففرحت كثيراً بعدما انتظرت طويلاً . وحمدت الله تعالى وشكرته . وفرقت الكنوز على الفقراء والمساكين . ولما وصل ابنها . استقبلته بوعاء مملوء بالياقوت والزبرجد ونثرتها عليه . ثم أجلسته على عرش من الذهب مُحلّى بالجواهر والقصب . وأعطته التاج ، واعترفت بالإساءة اليه . لكنه سامحها وعن إيذاء نفسها أرجعها . ثم نصّبته ملكاً بعدما قصّت قصتها على الأمراء وجميع الأكابر .

جلس داراب على عرش السلطنة متمتعاً بمظاهر الأبهة . فأطاعه جميع الملوك ، وقدموا اليه الخراج حتّى من الهند والروم وغيرهما . ثم أمر بشق نهر من بحيرة واقعة تحت جبل عظيم كان يزوره . وبنى على ذلك النهر مدينة سماها

داراب كرد . وبنى فيهـا بيت نار ، وأسكنهـا أصحاب الحرف والصناعات . ثم إنه قاتل رجلاً من العرب خرج اليه بمائة ألف فارس . فنازله وقتله . وأطاعه سائر ملوك العرب . ثم سار إلى بلاد الروم . فنهض اليه من عمورية ملك الروم فيلقوس مع أركان دولته وأكابر حضرته، بجيش عظيم . فتلاقوا في وقعتين كان النصر فيهما للإيرانيين الذين قبلوا السلام بعدما اتفق داراب مع ملك الروم على تزويجه ابنته ناهيد . فأرسلها والدها بعدما جهزّها بأنفس الجواهر وأطيب الأزاهر .

وفي يوم كانت مضطجعة مع زوجها . فتنفست ، فشم من نكهتها رائحة كريهة . فنفرت نفسه منها وابتعد عنها ، وإلى والدها أرجعها بعدما جلب لهـا الأطباء . فداووها ، ومن الرائحة المزعجة شفوها . ولما جاءت إلى أبيها حاملاً . ولدت صبيـاً أسمته الاسكندر تيمناً بالدواء الذي شفاهـا . فنسبه جده إلى اسمه ، وجعله ولي عهده ، مُعلناً انه ابنه .

توفي داراب بعـد حكم دام اثنتي عشرة سنة . وأعطى الحـكم قبل مماته إلى ولده دارا ، الذي ما أن استلم وعلى العرش حكم ، حتى تجبـَّرَ وعن حكم والـده تغير . ففرق أرزاقه على العسكر ، ووضعهم في طوائف ، كل طائفة

منهم تحت راية قائد أصيل وأمير كبير . فأطاعتـــه جميع الأمم من روم وعجم .

في ذلكِ الوقت توفي فيلقوس ملك الروم . فجلس الاسكندر مكان جده ، وأخذ الحكمة من فلاسفته . فحكم بالمعروف حتى يُذكر ، وصرف شعبه عن الفحشاء والأمر المُنكَر . ولما جاءه رسول دارا لأخذ الخراج ، صرفه ، وإلى ملكه أرجعه . ثم جَمَعَ جيوشه وتوجـه إلى إيران عن طريق مصر . فنزل فيها وقاتل مليكها . وانتصر عليه وانضم كل أهل مصر إليه . ثم رحل وخَيَّم على حافة الفرات . وعلى الحافة الثانية كان دارا وجنوده الذين خرجوا من اصطخر لمحاربة الاسكندر .

تـــأهب الجيشان لبدء القتـــال . فزار الاسكندر دارا متنكراً بزي رسول ، طالبـــاً من ملك إيران السماح للملك الروم بالتجوال في بلاده ، وقصده الوقوف على قوة عدوه وأحوال جيشه . لكن دارا استشبهه ومن عامل خراجـــه عرفه ، بعدما أكرمه واستضافه . فلما لحق به كان الاسكندر قد هرب . فقطع الفرات . وبدأوا القتال . وظلوا عـــلى تلك الحـــال حتى غلب الاسكندر وَهَزَمَ دارا الذي فرَّ وجَمَعَ جيشاً كبيراً لمواصلة القتال . فلاقاه الاسكندر وغلبه

مرة ثانية وثالثة . فهرب إلى جهرم ، ومن ثم إلى كرمان تاركاً اصطخر ، مقر ملكه ومستقر عرشه بيد الاسكندر . وفي كرمان اجتمع دارا بأعوانه ووزرائه فأشاروا عليه بطلب الأمان ولأْم الجراح . فكتب إلى الاسكندر كتاباً مشحوناً بالخضوع والاستسلام وطلب السلام . فجاوبـــه الاسكندر بالملاطفة وعدم المعاتبة مـُرجعاً إياه ملكاً على مـــا كان ، مُنَفِّذاً كما كان في الزمان . لكنه غيَّر رأيه وبدَّل فكره وقال : « أصعب من القتل عندي ، أن أشدَّ في خدمـة الرومي وسطي » . فراسل ملك الهند «فور» يطلب المؤازرة وسرعة المساعدة . فهاجمه الاسكندر في كرمان بعد رفضه السلام ، وانتصر عليه . ففرَّ وقُتِل على الطريق بواسطة اثنين من أخلص رجاله . طـَمـَعـاً برفع قدرهما ، وإشاعة ذكرهما ، وتوليتهما بعض الأقاليم ، بعد اتصالهما بالاسكندر وإخباره عن مقتل دارا . فلحقـه الاسكندر قبل أن يموت ؛ فحاسنه ولاطفه ومن حقده أنقـــذه . فوصّاه بممالك إيران والأهل والأولاد . وسأله أن يتزوج ابنته روشَنك . لعله يرزق ولداً ، يجدد اسم اسفنديار ، ويزين بدين زرادشت الديار . ويحافظ على خدمة النيران وإقامـــة مراسم النوروز والمهرجان . حتى لا تُمحى آثـــار كشتاسب ، ولا يزول رسم لهراسب . فوعده الاسكندر بتنفيذ وصيته . ثم دفنه

في ناووس مُزين كألوان الطاووس ، ووضعه على سرير مــن ذهب موشّى بالديبــاج والقصب . ثم أمر بنصب جذعين عند الناووس وصلب اللذين غدرا به حين . وأمر برجمهما ، فرُجِما إلى أن ماتا عبرة لمن نظر ، وموعظة لمن اعتبر .

١٠

الاسكندر

أصبح ملك الروم ملكاً على إيران وتوابعهـــا . فعامل بالإحسان ، وأشاع الأمن والأمـــان . وأعفى الجميع عن خراج خمس سنين . ثم نفّذَ وصيـة دارا وتزوج روشنك بعد موافقة والدتها . وذهبت أمـــه ناهيد من عمورية إلى إيران لإحضار ذات الجمال والأبهة والدلال . فتزوجها وأخذ يبني الديار المهدمة . فبنى هراة ومرو وسمرقند .

ثم إنه عزم على قصد ملك من ملوك الهند يسمى كَيدا . فلما قصده راسله وطلبه . فأجابه بتقديم بنتـــه ، وثلاث عجائب مـــن عنده . فـأرسل الاسكندر رُسله لاستيضاح مـــا وصله . فجاؤوه بـالجواب اليقين . ثم أرسل يطاب البنت مع الجام والطبيب والحكيم .

أما البنت فقد بُهِرَ بجمالها وحسنها ودلالها . والجام جرّبه وشدةِ ما أعجبه . فقد جلس مع ندمائه يشربون منه ويستزيدون . فلم يفرغ ولم ينضب . فلما استوضح عنه، أُجيبَ بأنه يجذب بخاصيته الماء من الفلك ، ويستدره من الهواء بحيث لا تدركه حاسة نظر الانسان . أما الطبيب فقد فحصه وبأدويته أقنعه . فركّب له دواءً يعافيه ومن كل الأمراض يشفيه . ونصحه بالاعتدال في الطعام ، وبتخفيف النوم مع النساء للمحافظة على دوام الشباب ، وحُسن الإنجاب . أما الحكيم فمن صنائعه أدرك أنه عليم . فقد أمر بجام مملوء بالسم والإبر، ذوبهما حتى صارا بيضة حديد، فصقلها لتبدو مرآة من جديد ، ثم أعطاها الى الاسكندر الذي دفنها ، وتحت الأرض خبأها . فنديت وصدئت . ثم أخذها من جديد ، وصقلها بحيث صار جوهرها كالبطل الصنديد،لا يصدأ ولا يهرأ . فلما سأله الاسكندر عن المعنى أجابه قائلاً : « السم يتغلغل في الدم كما تفعل الإبر في اللحم . وبيضة الحديد كقلبك الشديد . لا يدرك المعاني الدقيقة والرموز الخفية لكثرة ما أصابه من خطوب ووقائع . أما المرآة وردك إياها صدئة ، فهي إشارة الى أن قلبك كان كالمرآة ، لكنه صدىء من كثرة إراقة الدماء . وأنا بصقلي إياها ثانية ، إنما أشير الى مساعدتك وتنقية قلبك » .

فاستحسن الاسكندر قوله ، وقبل الهدايا وأعفى الكيدا من الخراج . ثم ترك ميلاب وتوجه إلى قنوج وعليهــا ملك يُعرف بفور . فأمره بالطاعة بدون مشاورة . فبعث فور اليه كتاباً يؤنّبه ، وعلى سفاهة رسالته يوبّخه . فما كان من الاسكندر إلا أن جمع جيشاً عظيماً من الروم والمصريين واسياد ايران وتوجه لمحاربته في طريق وعرة المسالك أثارت حفيظة جنوده . فنهرهم وزجرهم وعن غيّهم أرجعهم . فمشوا معــه خاضعين وإلى قنوج متوجهين . فلما وصلوا وتلاقوا ، أشار حكماء وفلاسفة الاسكندر عليه بـأن يصنع صور خيل من حديد . محشوة بالنفط ، إذا اقتربت منها خراطيم فيلة فور ، أشعلوا النفط فيهــا فتهرب . وهكذا كان . ثم تقابل الفريقان ودعــا الاسكندر فور لمبارزتــه حسماً لإراقــة الدماء وزهق الأرواح . فتبارزا وتصاولا وكاد فور أن ينتصر لـو لم يلتفت إلى الوراء . فعاجلــه الاسكندر بضربة أنزلته قتيلاً . ثم ولّى شورك أحد قواده، ممالك الهند بعدما أحسن معاملة العسكر راداً اليهم سلاحهم . وأكمل طريقه الى بيت الله الحرام متوقفاً في القادسية .

بلغ خبر وصول الاسكندر الى نصر بن قتيب . وكان ممن يتزين بــه الحرم . فقام اليه راكبـاً ، ومع الفرسان

مستقبلاً . فلاقاهم الاسكندر بالتعظيم والتبجيل . ولما سأله عن حاكم مدينته ، أجاب بأنه خزاعة الذي ملكَ الديار بعد القتل والدمار ، وأن الحكم يجب أن يكون لآل اسماعيل الذي هو منهم . فقامَ اليه الاسكندر ، وانتزع الملك من بين يديه وقرره في ذرية اسماعيل . ثم طاف حول الكعبة ، واهباً أمواله مُهدياً أرزاقه .

ومن الكعبة إلى جدة ثم الى مصر بطريق البحر . فاستقبله ملكها قيطون ، وعن ذكر قيذافة ملكة الأندلس أخذوا يتحدثون ، التي أرسلت مصورها لرسم الاسكندر في جميع أحواله وفي حِله وترحاله . فلما طالبها بدفع الخراج ، ماطلت وامتنعت . فسار اليها بجيشه ، فوصل الى مدينة من مُدنها ، فحاربها وافتتحها ، ووضع شهركير حاكماً عليها ، فأسر ابن قيذافة قيذروش الذي جاء للزواج من ابنة حاكم تلك المدينة . فلما عرف الاسكندر بذلك ، طلب من وزيره بيطقون ، أن يأخذ دوره ويجلس مكانه على انه الاسكندر . وإذا مَثُل قيذروش أمامه ، تشفّع هو له ، وإلى والدته أرسله .

سار الاسكندر مع قيذروش على أنه بيطقون ، الى قيذافة ملكة الأندلس . فلما وصل وفي قصرها الرائع مثّل .

شكرته ووهبته وعرفته من الرسوم التي عندها بعدما أطلعها على رسالة الاسكندر في دفع المقدّر . فلما أخبرته أنها عرفته، ندم على وضع نفسه بين أشداق الثعبان . لكنها طمأنته وعن أمر ابنها طينوش نصحته . فلما حضر الجميع وأخبرهم بيطقون برسالة الاسكندر . وقف طينوش كالملدوغ . فطردته والدته بعدما أنّبته . ثم ردته بناء على نصيحة الاسكندر الذي وعده بتسليمه الاسكندر يداً بيد . فاستحسن كلامه وقام معه . فساروا إلى المعسكر الذي في أنحائه الاسكندر . فلما وصلوا ، تقدمه بيطقون لإبلاغ الاسكندر الذي رجع مع فرسانه لمحاصرة طينوش . فلما حاصروه وعلى حقيقة الاسكندر أنظروه . فزع واقفاً وعلى حياته خائفاً . لكن الإسكندر طمأنه وفي مجلسه أجلسه . فأكلوا وشربوا وبهدايا قيذافة الثمينة تنعموا ، التي استحسنت دفع الخراج بعد التشاور والتداول .

ارتحل الاسكندر من الأندلس مُتنعماً ، وبين كل أقطار العالم متنقلاً . فوصل الى مدينة البراهمة . فدخلها بعدما راسل أهلها . وهم قوم حُفاة عُراة ، ليس عندهم سوى الصبر والعلم . يعيشون على أكل الحشيش وعلى النبات الهشيش فحاورهم بأمور الحياة وسر المهات . وعرض عليهم

هداياه . فما قبلوها بل رفضوها . ثم ارتحل ، وإلى بحر غريب وصل . كانت أسماكه وحيواناته طعاماً لرجال متنقبين كالنساء لا يعرفون العربية ولا الفهلوية . ولما أراد الركوب الى جبل في وسط البحر ، منعه فلاسفته . فأرسل جُنده في زورق صغير ، مـــا أن وصل ، حتّى ابتلعه الجبل . فكان حوتاً عظيماً كالجبل حجماً وشكلاً

ومن مياه ذلك البحر . انتقل إلى مياه سامة في غدير عظيم . فعبرها إلى ساحل بحر آخر ، ظهرت من جوانب يابسته خنازير وأفاعي وعقارب وسباع . فتقـاتلوا واقتتلوا حتّى انتقلوا الى أرض الحبشة . فأنزلوا غربانهـــا بالرماح بعدما تصادموا كالرياح . ولما جنّ الليل ، قتلوا كركدناً بالسهام ، كأنه من الفيـَلة العظام . ثم ارتحلوا والى أرض عراة وصلوا . فلما رأوا الاسكندر ، قـاتلوه بالحجارة . فواقعهم أصحاب الاسكندر وقتلوهم حتّى لم يبـــقَ منهم إلا القليل .

ومن هناك انتقل لقتال ثعبان على قمة جبل، كان يأكل كل يوم خمسة ثيران . فأمر الاسكندر بمثلهـــا محشوة سماً ونفطـــاً . فلما التهمها ، احترق بلهبهـــا . فانفلق وتشقق وقُطّع بالسيوف .

ومن قمة ذلك الجبل إلى رأس جبل آخر . حيث صعد لرؤية شيخ ميت على سرير من ذهب مسجى على ديباج ، على رأسه تـاج مرصع بالجواهر . فلما اقترب سمع هاتفـاً يقول : « أيها الملك ! قد جهدت زماناً طويلاً ، وأفنيت من الملوك كثيراً . وقد دنا وقتك وحان موتك » . فعظم عليه ذلك واصفرّ لونه .

ومن الجبل الى هروم ، حيث راسل سكانهـا البنات بأشكالهن العجيبات . حيث لم يُخلق للواحدة منهن إلا ثدي واحد هـو الأيمن فحسب . وهنّ في الأيسر كالرجال . فسمحن له بالمشاهدة والمرور توقياً للشرور . فذهب متفرجاً بعد أن قطع مدينة فيها أناس سود الوجوه، هُدل الشفاه . تتوقد النـار من أحداقهم وتخرج من أفواههم . فاستقبلوه وبفيَلهم خدموه .

ومن مدينـة البنات إلى أرض الجنّات . حيث تغرب الشمس في عين ماء كبيرة . مَن شرب من مائهـا خلُدَ ولم يمت . فانتقى للمهمة صاحب الأئمـة الخضر . فساروا وراءه فريقين على ظهور المهر . وتوغلوا في طريق الظلمات . فضلّ من كان مع الاسكندر حيث أفضت بهم الطريق إلى جبـل شاهق تسكنه الطيور البواسق . وتقـدم الاسكندر

وحيداً . فحاوروه بكلام الحكماء وبلسان العقلاء . ودعوه للصعود وحيداً لرؤية إسرافيل عليه السلام . فلما رآه صاح به داعياً إياه إلى المسير وبطريقه يكون التيسير . فلما رجعوا هتف هاتف من الجبل الأسود الذي كان هناك وقال : « مَن يحمل من حجارة هذا المكان يندم ، ومَن لا يحمل منها فهو أيضاً يندم . » فحمل منها بعضهم وأعرض عنها بعضهم . فلما خرجوا من تلك الظلمات رأوا تلك الحجارة جواهر ويواقيت . فندم من حمل حيث لم يستكثر . وندم من لم يحمل ، حيث لم يحمل كثيراً . أما الخضر فوصل إلى عين الحياة فشرب واغتسل وفاز بالمطلوب .

ومن الظلمات إلى مدينـة في المشرق وصلها مكرَّماً ، وعن عجائب أهلها سائلاً ، فقالوا له : « هم قوم أقزام أفعالهم كالضرغام . لهم أوصاف الحيوان وخصائص الإنسان . يأكلون حيوان البحر ونبات الأرض فلا يشبعون . فإذا خلصتنا من ياجوج وماجوج الذين هم وراء الجبل ، كنا لك من الشاكرين ، وبسيرتك نظل ذاكرين » . فأمر بسد عظيم يفصل الجبل عن المدينة ، حائطه من النحاس والرصاص والجص والحطب والحجارة المتينة . بُني على شكل طبقات تخللها الكبريت والفحم . فلما انتهوا ، نفخوا فيه . فارتفع

الدخان في السماء . وتمكنت النار فيه حتى انتهى وعلى الأرض هوى . فتخلصوا من شر ياجوج وماجوج بعدما حُرقوا وهُلكوا .

ومن تلك المدينة إلى مدينة أخرى ، وصلها بعد مسيرة شهر . وصعد إلى جبل لازوردي ، عليه بيت مغلّف بالجواهر وبأحسن الذخائر . فلما دخله ليرى عجائبه حُذّر وأنذر وعن قلة عدد أيامه في الدنيا أخبر . فخاف وارتعد . ثم ارتحل إلى عجيبة أخرى في مدينة صغرى . فلما دخلها أخبروه عن شجرة يتكلم نصفها بالنهار بصوت ذكر ، ونصفها الثاني بالليل بصوت أنثى . فقصدها مع الترجمان . فأخبرته الأنثى كما أخبره الذكر عن كثرة تجواله وقلة أيامه . فانصرف ذاهلاً ونحو الصين ذاهباً . فلما اقترب منها ، كاتب ملكها بغبور وزاره كعادته مُتنكراً بزي رسول . فأبلغه رسالة الاسكندر ، مهدداً بجحافل العسكر . فقبل بغبور الشروط وأرسله محملاً بالنقوط . فأقام شهراً ثم رحل إلى بلاد السند . فقاتل ملكها بنداه وكَسَرَه . وسار إلى نيم روز ثم الى اليمن. وقَبْلَ الوصول الى بابل على ساحل بحر مقابل . خدمه جماعة من لحافي الاذن. (بستركوش) طعامهم السمك وأبنيتهم من عظام السمك . ومن الساحل

توجه الى بابل . حيث قرب أجله وقلّت أيامه فخاف على الروم من بعده أن يُقتلوا علـى أيدي الإيرانيين . فأراد قتلهم والانتهاء من أمرهم . فأشار عليه ارسطاطاليس بعدم التقتيل لأنه يورث العداوة ، ويحصد الحسرة والندامـة ، وقال لـه : « قسم بلادك إلى ممالك : وأعط كل ملك ملكه ، على شرط أن لا يُطاول حدّه . آنذاك تشغلهم ، وعن أمور القتال تصرفهم » . ففعل بما أشار . وكانت ملوك الطوائف .

ثم إنه وصل بابل ليلة مولد أعجَب الخلائق . لـه أوصاف الحيوان وبعض الانسان . فتطيّر منه ، وفلاسفته سأل عنه . فأخبروه كما هتف الهاتف وتكلمت الشجرة . فاهتمّ واغتمّ ومرض وكتب رسالة الى والدته يخبرها فيها بدنو أجله وقرب ساعته . طالباً الحفاظ على اسم الاسكندر وفي كل أعماله وأقواله يُذكر . وأوصاها بزوجته روشَنك وابنـة ملك الهند كَيد . وذكّرها بعدم البكاء والتمثل بسير العظماء . وأمرها بتفريق رزقـه على المساكين وأمواله على المحتاجين داعياً إياها الى التصبر واتباع أوامر الله . ثم مـات بعد أن خدمـه العسكر . فَدُفِنَ كما طَلب بتابوت مملوء بالعسل ، بعد أن غُسِلَ بالماورد . وَغُمِر

بـــالكافور ودفنوه في تراب الاسكندريـة ، المدينـــة التي
بناها بعدمـا ودّعه أرسطاليس ، وانتحبت عليه أمـه .
ومضى الى مضاجعـــة التراب وهـــو في عـز الشباب .
وانتهى عهده كَبرق وَمض وطرف غَمض بعدمـا حكم
أربع عشرة سنة .

١١

الساسانيون

« يذكر القــارىء في موضع مر ذكره أن ابن بهمن وشقيق هماي كان يُدعى ساسان وقد هرب إلى خـــارج البلاد وتزوج كاتماً سره ونسبه ورزق ولداً سمّاه ساسان الذي سمّــى أولاد أولاده أيضاً ساسان» .

أما ساسان المنتسب إلى بهمن بن اسفنديار ، فقد جاءَ إلى اصطخر ليرعى الإبل عند حاكمها بابك الذي استدعاه يوماً بعدما رأى في منامه حُلماً فُسّرَ له بأن ساسان أو من يتفرع عنه سيحكم إيران . فلما أدخله وعن سره استحلفه، أخبره ساسان أنه ينتسب إلى بهمن بن اسفنديار بن كشتاسب. فأجلسه في قصره ، وزوجه من ابنته التي ولدت ابناً سمّاه اردشير بابكان .

نشأ اردشير وكبر ، وبشجاعته طار الخبر . فلما سمع به اردوان ملك إيران ، طلبه ليرى شجاعته . فلما جاءَ إلى اردوان ، أخذه هذا الأخير مع أولاده الاربعة إلى رحلة صيد . فاصطادوا ، وعلى غزال رماه اردشير وقتله وادّعى ابن اردوان قَتْله ، تنافسوا . فقال له اردشير : « إن هذه الصحراء ملأى بالغزلان . فارم آخر إن كنت صادقاً » . فغضب اردوان منه ، وعينه حارس شرف على اصطبله . فرضي بالأمر وسكن بيتاً تحت القصر . فعشقته جارية كانت هناك تُدعى الجلنار ، وأخذت تتردد عليه .

مات بابك في اصطخر ، فعيّن اردوان ابنة بهمن حاكماً عليها . وهرب اردشير بعد سماعه التفسير الذي أخبرته عنه الجلنار ، مفاده أن اردوان طلب من المنجمين والعلماء أن يعرفوا من سيتولى بعده . فأخبروه بأنه واحد من المنتسبين إلى عُرف كريم يجده في الهاربين من قصره . فلما أدرك الحال ، وجد الجلنـــار قد هربت مع اردشير على فرسين بعدما أخذت ما أرادت من الجواهر والذهب . فكتب كتاباً إلى ولـــده في اصطخر يحذّره من الخطر ويخبره أنه لم يستطع اللحاق بأردشير بعدما ركب وراءَه واقتفى أثره . فلما استلم الرسالة ، تنبه للأمر وتلظى كالجمر ، واستعد

لمحاربة اردشير الذي جمع صحبه ومؤيدي حقه . وتوجه بهم إلى اصطخر كبرى الممالك بين ملوك الطوائف . فتحاربوا طويلاً الى أن ُهزِم بهمن ، وهرب مع عدد من جنوده.

دخل اردشير اصطخر وسلم أموره الى بطل كان معه يدعى يباك بعدما استأمنه وعلى أسراره استحلفه . ثم استعد لقتال اردوان الذي َقدِمَ اليه من الري . فتلقاه ، واتصلت الحرب بينهما أربعين يوماً متواليـــة ، انتصر على أثرها اردشير وقتل اردوان بعدما أسر اثنين من أولاده . وفر الآخران الى بلاد الهند . ثم ارتحل الى الري وتزوج من ابنة اردوان لتدله على كنز والدها . ثم عاد الى اصطخر وبني مدينة جميلة دعاها بأردشير خره ، فأقام فيها بعدما قتل الأكراد الذين ظهروا بأطراف البلاد .

في ناحية أخرى من بلاد فارس ، وفي مدينة على ساحل البحر ُتسمّى ُكخاران . كان لرجل ُيسمى هفتواذ (له سبعة صبيان) بنت واحدة ، تذهب مع صاحباتها الى سفح جبل لغزل القطن ونسجه .

ذات صباح كانت تأكل تفــاحة وقعت في حجرها . فوجدت في وسطها دودة . فأخذتها ووضعتها في وعـــاءٍ كان معها . ثم غزلت كثيراً ذلك النهار على اسم الدودة.

وظلت تعمل فيما بعد هي وأهلها حتى اغتنوا وفاقوا الأمير ثروة . فتصدى لقتالهم. فقاتله هفتواذ وانتصر عليه وانتقل الى قلعة محصنة مبنية على صخور ضخمة ، ونقل الدودة من وعائهـا الى حجرة خاصة بها حيث صارت كالفيل كبراً ، وضخامة ،واستفاض خبرها بين النـاس فسميت تلك الناحية كرمان (كرم بالفارسية : الدودة . والجمع كرمـان) .

علم اردشير بخبر هفتواذ وعدم انقياده لسلالة كيقباذ . فقصده محارباً ورجع منهزماً ، بعدما أضاق هفتواذ عليه الحصار ، فولى الأدبار . وعلى الطريق تعرف بصديق ، أخذه الى منزله وعرّفه بصاحبه. فأصبحوا كلهم أصدقاء. فلما عرفـا أنه اردشير ، ووراء ثأره من هفتواذ يسير . أشارا عليه بالحيلة لأن الدودة مسكونة ومن عمل الشيطان ملعونة. ثم جمع جيشه لمقاتلة مِهرك صاحب كِهرم الذي استولى على اردشيرخره في غيـابه . فلحقه ثم قتله ، وقتل كل من ينتسب اليه ، ثم سار الى قلعة هفتواذ لاجئاً الى الحيلة ، كما فعل اسفنديار بقلعة أرجاسب . فلما دخل وَعزَمَ ، والنار أشعل ، هجم قائده لما رأى دخان النار . فدخل مع جنوده القلعة وقتلوا هفتواذ وولده الأكبر سابور.

أما الدودة فقد قدّموا لها طعـاماً من الحديد مُذاباً مع الرصاص والنحاس . فلما أكلته انشقّ حلقها وانتهى أمرها. ثم ارتحل الى فارس فشهروز فطيسفون مسلّماً زمام الإقليم والقلعة اللذين احتلهما الى الصديقين الفلاحين اللذين أمّنهما.

ولما كان اردشير متزوجاً من ابنة اردوان . فقد أمر بطمرها تخلصاً من غدرها بعدما حاولت أن تسمّه بتحريض من أخيها بهمن الهارب ، ومن وجه اردشير شارد . فلما استشفعته وبحملهـا منه استرحمته . رفض أن يسامحها والى عهدته يرجعها . فأخذها وزيره ، ووضعها في قصره آمراً زوجته بخدمتها والسهر على راحتها ، بعدما طهّر نفسه لئلا تسوء سمعته ، ويُهتَك شرفه . فلما ولدت صبيـاً . أخذه ، وعن العيون أبعده حتى كبر وأصبح عمره سبع سنين .

ذات يوم دخل الوزير على اردشير فأبصره مهمومـاً وعلى عرشه مزعوجاً ، لأنه لم يخلّف ولداً يرثه ، وعلى العرش والتـاج يجلسه . فانتهزها الوزير فرصة وتكلم بعد طلب الأمان . فأخبره بقصة ابنه ، الذي كان ينوي قتل أمه . ففرح اردشير وأمر بنثر الدنانير . وأمر الوزير بوضع ولده في جم غفير ليرى إذا كان بإمكانه أن يعرفه ، ومن

بين الغلمان ينظره . فعرفه دون دليل ، لكن من الحنين الذي طفح قلبه . فأخذه وعلّمه الآداب الشاهنشاهية والمراسم السلطانية حتّى نضج وكبر ، وفي حروب والده انتصر . ولما أراد والده أن يزوجه راسَلَ عالم الهند وملكها كيد ، سائلاً إياه عن الاستقرار والسلام ، فأجابه قائلاً : « لا يتم ذلك إلا بمرادك . فأن زوجت ولدك الذي من نسلِك، الى نسل مِهرَك ، عمّ الأمن والاستقرار ، وانصرف الناس الى البناء والعمار » . فأرسل اردشير طالباً بنت مِهرَك التي هربت حين قتل والدها . فلم يجدها لأنها التجأت الى ضيعة بعيدة واختفت . وبينما كان ذات يوم مع ولده سابور يتصيد . سَرَحا وفي الصحراء سارا . فعطش سابور واتجه الى ضيعة كثيرة الماء والشجر . ثم لقي جارية جميلة كالقمر . سقته وأعجبته . فلما سألها عن اسمها . حلّفته واستأمنته بأنها ابنة مهرك وطِلبَة الملك اردشير . فتزوجها سِراً ، ولو علم والده لأخذها له جَهراً . فرزق صبياً سماه اورمُزد الذي ما أن أصبح عمره ثماني سنوات حتّى اكتشف اردشير أمره وذاع سره . فبينما كان يلعب مع أقرانه بالطابة ، وقعت قرب جده ، فما تجاسر أحد من الاقتراب اليه إلا اورمزد . فتعجب اردشير منه ، وأخذ

يسأله . فعرف أنه ابن سابور من ابنـة مهرك . ففرح هاتفاً ، وابنه مهنئاً . ثم فرق الأموال على الفقراء وزيّن بيت النار بالديباج وألوان الثياب . وادرك أنه منذ ثمانـي سنين ، من حيث ولد اورمزد . لم يقد جيشاً ولم يخض حرباً . بل ابتعد عن الأسر والتقييد ، تمامـاً كما قال له كيد .

ثم إن اردشير عـرف حسن الإدارة والتدبير . فنظّم الجيش ورتبه ، وديوان الجند أسسه . وجعل لكل جندي راتباً ، ولكل ألف جندي قائداً . فمن كان شجاعاً أدخله. ومن كان جباناً حوّله الى الحرف والأشغال . فانتظمت ممـالكه وكبُرَ عسكره . وخصص للمظلومين مستمعاً ، وللرسل قصراً و مركزاً ، واختار من قوّاده من كان عالماً وعاقلاً . فأرسله الى مباحثة أعدائه للدخول في خراجه . ونبّهه الى حسن المحادثة وآداب المشاورة . فإن أبوا أعذرَهم وأنذرهم وأكابر قواده لمحاربتهم أرسلهم . فعظمت أمور شعبه . وانتظمت أحوال ملكه . وأسلم الروح بعدما ملك اثنتين وأربعين سنة ، مُخلّفاً وراءَه مُدناً باهرة ، وعهداً ميموناً وذكراً طيباً .

استلم سابور مُلكَ اردشير ، وعلى سيرة أبيـه كان

يسير . فساس بالتعاون أساساً للتضامن . وحـــارب أهل قيذافه لما امتنعوا عن أداء الخراج . فتوجـــه اليهم وأسر بطلهم برانوس . فتضرعوا اليه بالسلام ، ورجـــاه قيصر الروم طالباً الأمان ، باعثاً اليه أجمل الهدايا وكل السبايا التي سباها في حروبه . وكان اردشير يستشير أسيره برانوس في أعماله واعداً إياه بفك أسره إن هو بنى له قنطرة فوق وادٍ كثير المـــاء بمحلة تُدعى بتستر . فجدَّ واجتهد وأمر الصناع ببناء القنطرة فلما انتهت ، سلَّمه إياها . ففك أسره وحلَّ قيده . ثم اتجه سابور الى محاصرة قلعة الحضْر لِما سمع من تطرف صاحبها وتكبر قائدها الضيزن بن مُعاوية. فحاصرها أربع سنين دون أن يقتحمها لقوة سورها وتعاضد جنودها من قُضاعة وبني العبد وغيرهم من قبائل العرب . لكنه عاد ودخلها بمساعدة ابنة قائدها النضيرة بنت الضيزن. فإنه لما رآها ورأته ، عشقها وعشقته وعلى سر القلعة دلته. فلما دخلها بعد تداعي سورها تزوجها وأكرمها وعلى نسائه رفعها . وظلَّ على عدله وقوَّته حتى وافته المنية بعد حكم دام ثلاثين سنة . فاستلم ابنه اوزمرد اوهرمز مكـــانه ثم بهرام بن هـــرمز ، فبهرام بن بهرام ، فبهرام بن بهرام أيضـــاً . ثم نرسى بن بهرام . وأخيراً هرمز بن نرسى .

كلهم حكموا لفترات قصيرة ومُدَدٍ يسيرة . فاتصف حكمهم بالعدل والرأفة والإدارة الحسنة .

لما مات هرمز بن نرسى ، ولم يكن له ولدٌ يخلفه . اجتمع أشراف مملكته ، وأعيان دولته . فنظروا في جواريه، فوجدوا واحدة حُبلى منه . فنصَّبوا ولدها بعد وضْعِها، ملكاً على إيران بعد تسميته سابور . ووضعوا شهرويه مُوَكَّلاً ومدبِّراً ريثما ينشأ الصغير ويكبر . فلما بلغ خمس سنين ، ورأى الذاهبين والراجعين قد ازدحموا على جسر فوق دجلة . أمر ببناء جسر آخر يكون للذاهبين ، والأول للراجعين . وظلَّ يترعرع وعلى آداب الملوكية ينظر ويتسمع ، حتى كبر وخرج لقتال ملك من آل غسان من العرب . كان قد هجم ، ومدينة طيسفون اقتحَم . فنهبها وسرق ذخائرها وأسر نساءَها وبينهن عمة لسابور . فرزق منها بنتاً دعاها مالكة . فلما حاربه سابور ، حاصره بقلعة في اليمن وقطع عليه المرور . واستطاع بعد حصار شهر أن يدخلها ويقتل ملكها بعد مساعدة ابنة عمته من الداخل ، التي راسلها وأعجب بحسن خصائلها . فعشقته وعشقها . وأمر بعد الاستيلاء على القلعة ، بقطع اليدين والكتفين عن الرقبة . فلقَّبه العرب من أجل ذلك « ذا الأكتاف » .

ثم إنه أراد أن يطوف وبلاد الروم يشوف . فتنكر بزي تاجر ومثل في حضرة قيصر الروم لتقديم هداياه وبذل عطاياه . فاستقبله قيصر الذي تنصّر ، ودعاه إلى طعامه وشرابه ، ثم قيّده وكبّله وفي جوف جلد حمار وضعه ، بعدما عرفه بواسطة أحد خدامه الإيرانيين. ثم سلّمه إلى خادمة إيرانية كانت عند زوجته ، لتحفظه وتعتني به . وهجم قيصر على ممالك فارس مستغنماً فرصة غيـــاب سابور . فاقتحم منازلها وقتل أهلها وأجبر من نجا منها على الدخول في دين المسيـح . لكن ســابور استطاع أن يهرب من أسره بمساعدة الجارية التي ركبت معه على حصان أسرجه . فلما وصلا إلى خورستان ، وعلى باب بستاني أخذا يدقان. فتـح لهـما وفي ضيافته أكرمهما . ونزل في خدمتهما بأحسن طعام وأطيب شراب . ولما عرّفه سابور بنفسه وسأله عن مُلكه . تحسر على الإيرانيين الذين أصبحوا مكبّلين ، وفي دين قيصر خادمين . فأمره بالذهـــاب إلى قائد قواده ، وإعلامه عن حاله لجمع العسكر واقتحام المعسكر . ففعل البستاني بما أمر ، وأتاه مع الجواسيس بأخبار قيصر الذي يقضي كل أوقاته في الصيد واللهو بمعسكر في مدينة طيسفون. فلـما تجمّع معه ثلاثـــة آلاف فارس . هجم على معسكر قيصر بغتة ، كالشمس البارزة من بين الغيوم الداكنـــة

ونزل قتلاً بالسيوف والرمــاح . فأسر قيصر وأعوانه . وأرسل إلى الأمصار يعلمهم بالأخبار . ويعلن عودة السلطان لإشاعة العدل والأمان . ثم كرّم البستاني وجعله أعظم أهل زمانه . وأمر بإحضار قيصر . وأخذ يحاسبه على ما بدر منه . جاعلاً إياه يدفع الثمن بأسره وهلاك عسكره، وخراب بلده الذي هجم عليه، ونازل يانس شقيق قيصر. فهزمه وانتصر عليه . فلما رأت الروم ما فعله سابور ولّوْا برانوس بالتكلم عنهم ، ومباحثة عدوهم بالسلام والدخول في الخراج . فأمر سابور برانوس بالمجيء إلى حضرتــه مع فلاسفته وأساقفته . فجاؤوا مذلولين ولعدله متضرّعين. فأمرهم بعدما أحسن وفادتهم بالتزام ثلاثة آلاف دينـــار كل سنة ، والتخلي عن مدينة نصيبين التي عـــاد ودخلها بعد تعنت أهلها ورفضهم الانقياد لحكم سابور . فلما تمّ له كل ذلك ، استقر ملكه وبنى مُدنه ، ومنها مدينــة نيسابور ومدينة خاصة لأسرى الروم . ومات بعد أن صلب ماني المصوّر من أرض الصين الذي ظهر مُدّعياً النبوة . فلما حقق في دعوته وبشأن أمره . وجد دعوته كاذبــة ومن الحقيقة خالية . ثم جاءَ اردشير بتنصيب من سابور الذي قبل أن يموت ، جعل ابنه الصغير سابور وليّ عهده

ومستلم عرشه . وجعل أخاه اردشير مدبّراً ولوليّ العهد حارساً. فلما استلم الصغير بعد موت عمـــه اردشير . ساس بتنظيم الإدارة وحسن السياسة ، ومات بعد أن وقع عليه عمود خيمته التي كان يأكل ويشرب تحتها في رحلة صيد. ولمّا لم يكن له خلفٌ،بل خمس بنات وأخ يُدعى يزدجرد. سلّمه ممالكه مُوصياً إياه بشعبه وأموال خزائنه .

١٢

بهرام جور وقصصه

جلس يزدجرد الملقب بالأثيم واستلم ، وبالظلم والجور حكم . فعظمت أفعاله وكبرت أعماله . فخاف الناس من شره ، ولم يتجاسروا في اتخاذ مشورته . واستوى عنده العالم والجاهل ، والصالح والطالح . ولما استكمل من مُلكه سبع سنين ولد له ابن سماه بهرام . فخاف العلماء عليه من ظلم أبيه واستفحال أمره . فأشاروا على الوالد بتربية القادم في إحدى الممالك المجاورة . فاجتمع عنده الملوك . فاختار المنذر بن النعمان ملك العرب ، ووالده النعمان ليكونا كفيلَين والآداب والفضائل مُعلّمَيْن . فأخذه المنذر إلى بلاد اليمن ووضعه تحت إشراف نساء أكابر العرب والعجم . فأرضعنه وربينه ولم يفطمنه إلا

بعد أربع سنين . ولما بلغ سبع سنين . طلب من المنذر تعليمه الفروسية والآداب السلطانية . فتعجب من ذكائه وشدة بأسه ، وأرسل في طلب العلماء لتعليمه كالنجباء. فاجتمع عنده أربعة منهم . الأول للخط والكتابة ، والثاني للصيد والطرد ، والثالث للرماية واللعب ، والرابع لسرد حياة العظماء والتمثل بالحكماء . فلما بلغ الثامنة عشرة . صرفهم النعمان بعدما خلع عليهم أموالاً باهرة وحُللاً فاخرة . واختار بهرام من كل خيل العرب فرسين ، كالريح الهوجاء في مسابقة العنقاء . ثم اختار وصيفتين دون أن يتخذهما زوجتين ، لأن النساء كما قال ، راحة للعقول وتسلية للقلوب . لكنه عاد وقتل واحدة منهما لأنها استخفّت بقوته وسرعة رمحه ونشابه في رحلة صيد قاما بها لاصطياد الغزلان في أرض النعمان .

وكان النعمان يرسم صوراً لبهرام في جميع أحواله وأفعاله ويرسلها إلى والده يزدجرد . فلما رآها هذا الأخير ، أعجِبَ ببهائه وقوة رجولته ، فطلبه للزيارة والبقاء للخدمة . فجاءَ مع النعمان بعد توديع المنذر . ونزل في خدمة والده جاعلاً إياه ساعده الأيمن ومستشاره الأفضل . لكنه تأخر مرة في الخدمة ، وأبطأ في المهمة .

فحبسه والده والزمه بيته . فضاق صبره وطلب عودته إلى المنذر ، فعاد إلى أحسن مما كان عليه .

ثم إن الملك أراد أن يعرف أخبار الفلك . فسأل المنجمين عن طول حياته وقُرب أجله. فجاوبوه منذرين وعن عين السوء (عين ماء) مُبعدين . لأنه إذا اقترب منها سيموت للحال . وهكذا كان . فإنه لما مرض أشاروا عليه بالاغتسال بمياه تلك العين . فذهب محمّلاً والشفاء طالباً . فلما اغتسل شفي للحال : لكن جواداً أشهب خرج من الماء ، وركله ركلة أوقعته أرضاً ، وللحال ميتاً . ثم اختفى الجواد من حيث أتى . فلما مات ، اجتمع أكابر الفرس وعلماؤهم لتقرير الخلَف بعد السَّلف . فأبعدوا بهرام من قائمة الحُكّام ، واضعين مكانه خسرو من الشجرة الكيانية والعزة السلطانية . فثار بهرام طالباً مساعدة النعمان . فساعده وبجنوده أمدّه . فسار إلى أطراف فارس يعيث فيها خراباً ويدمّرها تدميراً . فأرسلوا اليه رسولاً يطلب الصلح ، والكف عن الأذى . وظلت الرسل فيما بينهم حتى قرروا بأن يوضع التاج على العرش . وبشد قائمتي العرش إلى سَبعَيْن ضاريين مجوّعين. فإن تمكن بهرام أو خسرو من التاج يكون له المُلك والحكم . فاقترب بهرام وقتل السبعين

وأخذ التاج ووضعه على رأسه . فخرّ خسرو راكعـاً والعرش مسلّماً .

استلم بهرام وحكم ، وفي الحضرة السلطانيـة ارتسم . فعـامل بالحسنى والمعروف كل من ساعده على الوقوف لاستلام الرئاسة وممارسة السياسة . فسامح من وقف ضده. وعفى عمن لم يَدفع رَسمه . وشكر النعمان وأمراء العرب ووهبهم هداياه وآلاف التُّحف . وبثّ رُسله لإرجـاع من شملهم جوْر أبيه . فعـادوا آمنين وبعدله شاكرين . وسمع مرة بخبر السقّاء واليهودي . فـأحب أن يمتحنهم وباستضافته يجربهم . فقصد السقّاء ذات مساء طالباً المأوى شاكياً البلوى من ظلم الملك . فاستقبله وبمنزله أنزلـه ، وقدّم له الطعام والشراب بعد أن رهن الثياب . ولما أراد أن يرتحل ، طلب منه السقّاء أن يبقى ، وفي بيته يأوى إن أراد أن يتخاص من ظلم الملك . فبقي عنده مـدة أسبوعين ، بعد أن أوقعه في دين ثمن الطعـام والشراب الذي قدّمـه للضيف . ثم ارتحل قاصداً اليهودي . فلـما حضر إلى بابه . امتنع عن ضيافته . فلما ألـحّ ، استضافه مُكرَهاً ، وفي ركن صغير من منزلـه أعطاه منزلاً . واشترط عليه إن هو أراد الإيواء لليلة ، أن يمتنع عن الطعـام

والشراب ، وينـــام في الثياب التي عليه . ثم أخذ يأكل ويشرب خلسةً مخافة أن يدعو ضيفه مُثبّتاً بخله ، نافياً يُسْرَه .

فلما كان الصباح قام بهرام وكنَّس زِبل خيله كـــما وعد اليهودي . ثم ارتحل إلى قصره ، وأرسل في طلب السقّاء واليهودي . فصادر أموال الأخير ووهبها للأول . فأصبح اليهودي من أخسر الخـــاسرين وفي عداد الفقراء والمحتاجين .

ثم إن بهرام حرَّم الخمرة لأنهـــا مضرة . فقد قتلت رجلاً جاءَه بهدايا من الفـــاكهة . فدعاه للشراب وشربـا كثيراً . فلـما ارتحل ، شعر بها كالنصل . فبظت عيناه ، وارتعشت يداه . ومات من حمهـــا في جوفه وسريانها في دمه . فلما علم بهرام ، حرَّمها ومن مجالسه أخرجهـــا . ثم عاد وحللها بعد أن عرف فعلها . فقد جعلت عريساً لما شرب كثيراً ، أن يركب سبعاً ، ظـــاناً إياه فرساً . فتعجب بهرام منه ، وحلل فعله الذي هو من تأثير الخمرة.

وكان مرة في مصيده يتسلى . فاعترضه فلاح وأخبره عما لاح .فإنه لمّا كان يسقي والأرض يروي . نزلت الماء في ثقب وغارت فيه . فسمع لصوتها خريراً كأنها في سبيل.

فأمر بهرام بالحفر ، فوصلوا إلى شبه قبر ، مُحلّى بالذهب، وموشّى بالقصب . ومحروساً بأصنام من الياقوت ، وُضِعَت على التابوت باسم جمشيد . ففرق هذا الكنز على الفقراء والمحتاجين وفتح أبواب كنوزه على العسكر . لأن المال إن وُجد فسبيله إلى الصّرف وتحسين أمور الرعية . لا إلى الحزن والدفن ووضعها في كفن .

وكان مرةً يتصيّد وحيداً . فرأى ثعباناً عجيباً غريباً. كالنساء شكلاً والرجـال قوة . فقتله وشقّ بطنه . فإذا برجل شاب في جوفه كان قد ابتلعه . فبكى له وهرب من سم الثعبان ، الذي دَوَّخه ومن مكانه أبعده . فوصل إلى دارة في ضيعة ، على بابها امرأة . فطلب المبيت ونزلت هي في الترتيب . فحضّرت له مكاناً للنوم وطعاماً للأكل. فأكل وشبع وأخذ يسألها مع زوجها عن أحوال مَلِكِها. فأجابته قائلة : « إنه عادل ، وفي بعض الأمور ظالم . فإنه مثلاً يأخذ على هذا البستان خمسة دراهم في كل سنة» . فاستقلّ بهرام القيمة ونام ناوياً زيادته نسبةً لقلته . فلما أصبح ، عاد وأصلح ما نوى عليه ، لمّا وجد أن البقرة التي عند المرأة لم تعد تحلب لأن الملك نام وهو ظـالم . فلما رضي ، عادت البقرة وأدرت بلبن غزير . ولمّا عرفته

المرأة وزوجها . قبّلا الأرض بين يديه ، واعتذرا عند رجليه على ضيق حالهما وصغر بيتهما . فأحسن اليهما ، ووهب لهما تلك الضيعة . وأوصاهما بحسن الضيافة والمحافظة على الصداقة .

ثم انه خرج أيضاً للصيد في موكب عظيم تحدثت عنه الأقـــاليم . وكان معه طير جارح يُسمى طغرى ، هدية من خاقان الصين . فطيّره ووراء الطيور أرسله . فحلّق في السماء وطار مع الهواء حتى غـاب عن نظره . فلحقه مع ركبه قاصدين جَلبــه . فوصلوا إلى قصر منيف في ضواحـي الريف . فقام صاحب القصر وكان يسمّى برزين، ودعاه إلى ضيافته ، دالاّ إياه على طغرى الذي علق في شجرة . فأرسل بهرام غلمانه وجلبوا طغرى . وكان لبرزين ثلاث بنات . واحدة مغنية والثانية راقصة والثالثة جنكيّة (تدق على الرباب) ، قُمن بالضيافة وحسن الوفادة . فأعجب بهرام بهن ، وطلب الزواج منهن . فقبل والدهن. فأخذهن بهرام بعد أن أجلسهن على عروش من الذهـــب محلاّة بالقصب .

وأظهر بهرام مرة شجاعة فائقة في اصطياد الحيوانات الضارية في صحراء خبر فاصطاد سبعاً خرجت من بطنـــه

لبوة . فتلقــاها بالسيف ونزل كالضيف على أهل مدينتي خبر وبرقويه ، الذين ما أن علموا بقدومه حتّى خرجوا مسرورين ، وبضاعتهم ومصنوعاتهم مُبيعين . فرحَّب بهم وقبل هداياهم وأمر بإسقــاط الخراج عن المدينتين . ثم تحرك لصيد اليعافير فقتلها كأنها عصافير .

وانتقل بعد ذلك إلى بغداد ثم إلى اصطخر ، لاهياً مع نسائه وجواريه ، قاضياً وقته بصيد حُمر الوحوش فسمّي ببهرام جور (كور تعني حمــار الوحش) لكثرة ما قتل منها ومن غيرها .

ولما كانت رحلات صيد بهرام كثيرة ومغانمها عظيمة. فقد اتَّجَهَ مرة صوب أراضٍ واسعة لاصطيــاد النسور الجارحة . فلما انتصف النهار واشتدّت الشمس اللاهبــة كأنها نارٌ حارقة . تحولَ مع صحبه إلى ضيعة غنَّاء كأنها الصحراء وسعاً والجنــات منظراً . فلما دخلها لم يستقبله حاكمها ولا أهلها ، كأنهم ليسوا تحت طاعته ولا داخل مُلكه فاغتاظ ، وللأمر احتاط . ولأنه لا يحب العدوان ، ويؤثر عليه الأمان . فقد أمر رئيس كهنته الذي كان معه بتحويلها إلى أرض بور وحفر غور ، دون المساس بأهلها وإهدار حقها . ففطن رئيس الكهنة للحيلة . وأشاع أن

الملك تخلى عن حكمه لهذه الناحية . وأمر كل رجل وامرأة بحكم نفسه وتنفيذ رأيه . فاستمسك كل شخص برأيه وأراد فرض نفسه . فعمت الفوضى وكثرت البلوى ، وقتلوا بعضهم بعضاً . فخربت الضيعة وصارت كالمقبرة ، تسرح فيها الأشباح بعدما هجرتها الأرواح .

وكعادته في رحلات الصيد ، رجع بهرام بعد سنة ، ومرّ من تلك الناحية . فلما رآها دوراً خراب وعزاً في التراب . حزن على أطلالها بعد عزها ، وأمر بإعادة بنائها ، فتوجه كاهنه منتقلاً من خربة إلى خربة. فوجد رجلاً عجوزاً لم يرحل أمام بيت لم يَسلم . فأخبره بنيّة الملك في إعادة تشبيد الضيعة . وأوكله أن يتصرف ، وعلى غيره لا يتعرف ، طالباً منه إطاعة الملك دون التفرد بالرأي . فامتثل الرجل لأمره ، وعمل برأيه . فأعاد الحياة إلى الخراب والمياه إلى الانسياب . وعرف من بهرام أنه متى استولى حاكمين على محلة ، وأكثر من رأيين على بلدة . كانت النتيجة الخراب في مدة كأنها السراب .

وبعد مدة خرج بهرام للصيد . فلما أمسى مع حاشيته على سفح جبل . رأى من بعيد ناراً وهجاء في وسط الصحراء . فتقدم للاستطلاع دون ارتياع . فرأى أربع بنات باسمه مغنيات وبجماله منشدات . فبُهر بجمالهن وبحسن

أصواتهن . ثم سأل عن سبب النار التي في وسط الدار . فأجبنه أنها لوالدهن الذي ذهب ليصطاد وتأخر في العودة . فأشعلن النـــار ونزلن منشدات حتّى يرى مكانهن ويسمع صوتهن فيستهدي للحال . فلما عاد الوالد ، فوجىء بوجود بهرام . فعفّر خدّه في التراب بعد أن غيّر الثيـــاب . ورحّب به في داره بين بنـــاته . فنزل بهرام ضيفاً ويد البنات خاطباً . فلم يصدّق الوالد طلب بهرام الذي عاود السؤال مؤكداً إنه لا يبغى مالاً ، ولا ينقص جـــاهاً . فرضي الوالد . وتزوج بهرام البنات واضعاً والدهن حاكماً على المنطقة ، متصرفاً في أمورها ، مُتدبراً في شؤونها .

ثم إن بهرام التهـــى في صيده ، وانصرف عن إدارة شؤون مُلكه . فكثُر الطامعون ومنهم الخاقان ملك الترك والصين . فجهّز جيشاً عظيماً واتّجه به نحو إيران . فما أن سمع به قوّاد مهراب حتّى نهوه ، وعن الصيد منعوه. لكنه ما امتنع وفي الصيد اتسع . وحضّر في السر جيشاً صغيراً من أكـــابر قواده وأشجع فرسانه . واتجه به نحو مرو لمحاربة الخاقان . ووضع أخـــاه نرسي بن يزدجرد مكانه ، مسلماً إياه العرش والتاج .

في هذه الأثناء كان سكان إيران قد ضجّوا من بهرام

وهروبه من المسؤوليات . فكتبوا إلى الخاقان بعد امتناع نرسي ، يعلمونه بالطاعة وقبول الزيادة التي فُرِضت على الخراج . ففرح الخاقان واستكبرَ وعلى أمراء الترك والصين تنمَّر . فقَبل طاعتهم ، وذهب للصيد مُنتظراً وصول الخراج من إيران .

أما بهرام الذي كان قد شارف مرو ورجعت جواسيسه من استقصاء الأخبار . فقد هجم على الخاقان بمن معه من الفرسان . فنزل قتلاً وأسراً وعليهم منتصراً . ثم دخل مرو وحَرَّرها من أمراء الترك والصين وتابع سيره حتى توغل في أطراف ممالك توران . فاعلاً بأهلها كما فعل بالخاقان . فاستأمنوا اليه ، ودفعوا الخراج زيادة عما كان وانصرف حتى وصل فَربر . فبنى هناك داراً ، جعلها واسطة بين ممالك الفرس والترك . وجعل جيحون فيصلاً بين المملكتين . ثم كتب إلى نرسي يعلمه بالنصر ويهنئه بالظفر . ويتمنى له لو كان معه ليشاهد أسر الخاقان ورفع راية ملك إيران . ثم توجَّه نحو اصطخر مُحمَّلاً بخراج ممالك توران حتى وصل إلى دار مُلكه ومكان عِزه . فأنفق الأموال في بناء القناطر والخانات . ووزَّع منها على الفقراء والأيتام والأرامل والعسكر . ثم أمر بإحضار تاج

الخاقان ، فقلعوا جواهره ورصعوا بها حيطان بيت النار. ثم توجَّه إلى طيسفون. فتلقَّاه نرسي وأكـــابر إيران بنثر الدنانير ورش الأزاهير . فجلسوا للطعام والشراب بعدمـــا عفا عن أهل إيران لمراسلتهم الخاقان . ثم كتب إلى جميع الممالك بالإعفـاء من الخراج لمدة سبع سنين ، شكراً لما منَّ اللهُ به عليه حين أظفره بالرغم من ضعفه وقلة عدده وعُدَدِه ، بعدو مثل الخاقان في قوة شوكته وكثرة عدده وعُدَدِه . ووضع نرسي ملكاً على خراســـان ، واستقبل رسول قيصر الذي جاءَ عنده يوم مسيره لمحاربة الخاقان . فطال مقامه وحان جوابه ، فأدخله إلى قصره وأجلسه بقربه. فاستمع اليه وأعجِبَ بعلمـــه . ولمّا كانت زيارته لإبلاغ السلام وسؤال العلماء عن سبعة أشياء . فقد جمع مهراب الفلاسفة والحكماء . وتناقشوا مع رسول قيصر عن أمور الحياة وأسرار البقاء . ففرح منهم الرسول ، وأدرك أنه لا خوف من المجهول . ثم قام وانصرف مُحمَّلاً بالهدايا والعطايا بعدما بقي عدة أيام في قصر الكرَم كأنه في إرَم. ثم نظر في أمر عسكره وممالكه ، التي قسَّمها إلى أقاليم وولايات . ووضع على كل واحدة منها بطلاً وعالمـــاً . وأمرهم بالعدل والإنصاف في معاملة الرعية متجنبين الأذية . لأن الناس ينظرون ومثل حكامهم يسيرون . وأمر شعبـــه

بالإخلاص والتفاني في إعمار المباني حتّى يعم السلام وينتصر الإنسان وتَكَبرَ ممالك إيران . وأطنب في تذكيرهم ونصحهم مُذكّراً إياهم بالثواب والعقـــاب وعدم التعرض للفقراء والأغنيــاء سواء كانوا أقوياء أم ضعفاء . وأمرهم بإفاضة الإحسان وإشاعة الأمان . فعمَّ العز عهده واستقام مُلكه.
ودخل الملوك تحت طاعته ما عدا شنكل ملك الهند الذي أخذ يعيث في البلاد من حدود الصين إلى أرض الهند ، مُتمنِّعاً عن دفع الخراج والدخول تحت رايـــة السلطان . فكتب اليه كتـــاباً افتتحه بالدعوة إلى الله والتضرع اليه . واختتمه بطلب تأدية الخراج وعدم إشراع الأسنة والرماح ضد الرسول الذي يحمل المرسول . ثم ختمه وكتب عليه « من بهرام ملك العالم إلى شُنكل قائد جيوش الهند من أرض قنوج إلى حد السند » . ثم وضعه في جيبه وخرج سرّاً اليه ، على أنه ذاهب للصيد . فلما وصل وفي حضرة شنكل مثل انبهر بروعة قصره وندرة جواهره . وأجلسه شنكل بجانبه على أنه رسول بهرام . ثم قرأ الكتاب الذي يهدده بالعقـــاب . فاحتجَّ واهتزَّ وعلى الرسول أراد أن ينقضَّ فهدّأه بهرام (الرسول) ودعاه إلى انتقاء مائـــة فارس من آساد فرسانه وأعيان قوّاده ، فإن تمكنوا منه

ومن فرسانه الذين معـــه ، امتنعوا عن الخراج . وإن لم يتمكنوا دفعوا الخراج وأمنوا جـــانب بهرام . فنزل على طلبه ، وأمر لساعته بالطعام والشراب . فلـما انتهيا . أمر شنكل بمصارعين . فأخذا يتصارعان ولا يغلبان . فقام بهرام من شدة سكره وفقدِ وعيه يصارع الرجلين . فغلبهـما ، وعلى الأرض طرحهـما . فتعجب شنكل منه ، ودعا له .

ولما كان اليوم الثاني . نزل إلى المباراة في زي المباهاة. فرمى خصمه بنشابة رمته أرضاً وقتلته قتلاً . فارتاب شنكل منه وشكَّ بقوتــه التي لا يمكن أن تكون إلا للملوك . فلـما صارحه وإلى بهرام نسبه . رفض قوله زاعماً إنه اجنبي يعمل في خدمة بهرام . فخلا شنكل بوزيره وساوره بشكوكه طالباً منه إغراء الرسول بالبقاء على طول في خدمة شنكل ومحـــاربة بهرام . فلما حادثه الوزير، رفض الطلب بكل أدب وطلب الإذن بالانصراف . فلم يأذن له شنكل إلا إذا قتل الكركدن والثعبان اللذين استفحل شرهما وعظم أمرهـما في بلاد الهند . فنزل عند طلبـــه رغم تحذير أصحابه وقتل الحيوانَين الهائلين . فهلَّلوا له وهتفوا بحيـــاته ، ولما أراد الرحيل زار مجلس شنكل . فلاقاه الأخير وحده وغرَّره بتزوجه ابنته . فرضي وبقي مُختاراً سبينوذ التي أحبتـــه

حباً جماً ، وبكت من فرط شغفها دَمعاً . ثم إنها طاوعته ورضيت بالفرار معه . ومهّدت له الإدبار ليلة زيارة والدها للأصنام ، لأنهم لا يعبدون النار . إذ ذهبت إلى والدها قائلة : « لأن المكان يبعد عن المدينة مسافة بعيدة ، وزوجي متوعك الصحة ويشعر برعشة . فأرجو له السماح بعدم الذهاب لئلا تسوء صحته ويتغير لونه » . فقبل والدها عذرها ورجته ألا يلحقها . ثم ذهبت إلى زوجها بعد سفر والدها ، وركبت معه يلحقهم صحبه . فلما وصلوا إلى الشاطىء ، وكان بهرام قد اتفق مع أصحاب الزوارق بعد أن وعدهم ومنّاهم . فركبوها وأبحروا فيها.

لمّا علم شنكل بخبر الهروب . رجع مُسرعاً عن طريق الأزقة والدروب حتّى وصل إلى الشاطىء واستقل زورقاً من الزوارق . فلما رآه بهرام خلفه ، نصحه بالعودة إن هو أراد السلامة متجنباً المحاربة . مذكّراً إياه بقوته وشدة بطشه . فأخذ شنكل يتحايل وبكثرة فضائله على بهرام يتساءل . ثم لعن ابنته التّي هي معه . فما كان من بهرام إلا أن هبّ واقفاً وسره كاشفاً ، قائلاً له : « ما لك تعيّرني ، وهل عار في أن يراجع الإنسان وطنه ، ويعاود أهله وسكنه ؟ إلاّ أني شاهنشاه إيران ، ولست ترى مني

بعد هذا إلا الجميل والإحسان . ولأتخذنك والدآ ، ولا أكلّفك خراجاً أبداً . وأصيّر ابنتك سيدة النساء في تلك الأقطار والمخصوصة فيها بالشرف والفخار » . فخرّ شنكل ساجداً ، ثم أسرع معانقاً . وجلسوا للطعام والشراب ، وتعاهدوا على المعاملة كالأصحاب . ثم ودّع كل واحد منهما صاحبه وأخذ في طريقه . فلما وصل بهرام إلى إيران، استُقبل بالزينات . وعُرِض له العسكر الذي أخذ يكبر . وجلس على عرشه في مستقر سكنه ، ينهى ويأمر ويعطي ويمنع . وبعد مدة من الزمان ، زاره عمه ملك الهند . فاستقبله عند النهروان من أراضي إيران . وأجلسه في قصره ونزل في خدمته . فتعجب شنكل من حُسن تربيته وعز سلطانه . وزار ابنته في مجاسها . فرآها معتصبة بالتاج على عرش العاج. فَسُرّ بسعادتها وبهنائها بزوجها. وبقي عند صهره مدة من الزمن ذهب بعدها إلى بلاده محمّلاً بالهدايا وآلاف العطايا له ولصحبه الذين معه .

ثم أن بهرام ، أشاع الأمن والأمان وأفاض العدل والإحسان . فعامل الرعية بحسن السياسة وتنظيم الرئاسة . وأحصى الأموال والذخائر الموجوده في الخزائن ، فوجد

أنها تكفيه لمدة ثلاث وعشرين سنة . فأوقف الخراج عن
الناس والدنيا ، وسأل ثقاته في إخباره عن الأحداث التي
تحصل في الأمصــــار . فأخبروه أنه لما أوقف الخراج ،
ارتفعت الكلف من النــــاس . فاستغنوا فطغوا فأخذوا في
سفك الدماء . فلما علم بذلك أمر بعودة الخراج لمدة ستة
أشهر في السنة ومعاقبة كل من يعمل جريمة ولا يخلد إلى
السكينة . ثم سأل أعوانه عن الأخبار في كل الأقطار .
فأجابوه بأن الناس انصرفوا وعن الزرع والحصد بَطلوا .
فأمرهم بتلزيمهم الزراعة وإعطاء كل من يحتاج إلى إعانة
حتّى ولو كانت من دار السلطان وبيت المال . ثم عــــاد
وسألهم بعد مدة . فأجابوه بأن الأحوال على انتظام والشعب
على وئام . لكن الأغنياء يلبسون أكاليل الورد والريحان ،
ويشربون على أصوات القيان وأغاريد المسمعات الحسان .
ومن عداهم من المقلّين يشربون بلا غناء وهم من ذلك
في تعب وعناء . فكتب إلى عمه يطالبه بانتخاب ألفي نفس
من الهنود الذكور والإناث ، من المخصوصين بحسن الصوت
وجودة الصنعة في الغناء . فلما وصلوا إلى أرض إيران .
اشتغلوا مدة بأمــــان ، ثم تفرقوا في الأمصار ، يقتلون

وينهبون ومن صوب إلى صوب يرحلون ، وهـــم الذين عُرفوا فيما بعد بالغَجَر . وبقي بهرام على عرشه إلى أن فرغت الخزائن كما قال له الخــازن . فسلّم ابنه الحكم ومات دون أن يدري به أحد . وظلّ ذكره وفعله على لسان الناس إلى الأبد .

١٣

والد كسرى

استلم يزدجرد مكان بهرام . فكان مثله يؤثر الإحسان ويحب الأمـان ، ومــات بعد حكم دام ثماني عشرة سنة مُوصِياً العرش والتاج لولده الأصغر دون الأكبر ، لأنه موصوف بالرفق والسكون والثبات والعقل . فاستلم الأصغر هرمز وغار الأكبر فيروز الذي كان في سجستان يوم وفـاة أبيه . فطلب مساعدة ملك الهياطلة الذي أمده بجيش كبير لقـــاء مقاطعتي ترمذ واشجرد . فتقاتل الأخوان في ظاهر الري ، وغلب الأكبر الأصغر وأخذ مكانه بعدما حاله من أسره وسلمه قيادة جيشه . ونوى أن يجعل إيران جنة من العمران ، لكن القحط الذي أصاب البلاد لمدة سبع سنوات ، جفف الأنهار وضروع الأبقار . فأوقف الخراج عن الناس

وصرف من خزائن الدولة . وهدد بخراب المدن وقتل الناس إن هو عرف بموت أحد من الجوع . فالغني يصرف على الفقير حتى يتيسر التدبير .

ولما دخلت السنة الثامنة . نزلت الأمطار وفاضت الأنهار ، وخرج الناس للاستسقاء فرحين ، وبنزول الديمة مهللين . ورجع فيروز إلى مشاريعه . فبنى مدينة باسمه واخرى باسم باذان فيرون قرب الري . وتأهب لمحاربة ملك الترك غير راض بالقسمة بين المملكتين ، وهي التي وضعها أجداده . فارتحل عن إيران واضعاً مكانه ابنه بلاش . ثم تراسل مع خوش‌نواز ملك الترك ، فأخذ الأخير يهدّده وبنصيبه يقنعه . لكنه ما اقتنع وبتهديدات ابن الخاقان ما ارتدع . فتقابلا والحرب تناوشا . ثم هجما فوقع فيروز مع ولده وأخيه وقواده في حفرة كان قد أعدّها ابن الخاقان . فماتوا وما سلم منهم إلا قُباذ فأخذه خوش‌نواز وقيّده وفي سجن وضعه ثم حمل على الإيرانيين . فقتل وأسر وغنم وعاد ظافراً . لكنه سرعان ما ندم لتسرعه في محاربة الخصم ، إذ أن سوفزاي حاكم زابلستان كان قد كتب لبلاش بن فيروز يخبره بموت أبيه وبأسر أخيه ، طالباً السماح في معاودة القتال وإطلاق السراح . فسمح له بلاش ملك

إيران . فتوجه بجيش عظيم قاصداً قصد ملك الترك والصين . وأوفد اليه رسولاً ذكياً ينذره وبالقتال يعامله ، وتبعة فعله يحمله . ثم قطع جيحون وأخذ يقتل كالمجنون آخذاً بثأر فيروز وبقتلى الإيرانيين . فما كان من خشنواذ (خوش‌نواز) إلا أن وافق على طلب الصلح الذي نصّ على إطلاق قباذ وقائد العسكر أردشير ، وجعل جيحون فاصلاً بين المملكتين ، ورد خزائن وأموال فيروز . فاتفقوا وعن القتال وقفوا . وعاد قباذ إلى أخيه بلاش وسرعان ما استلم الحكم منه لضعف إدارته واضطراب حكمه .

آثر قباذ نشر السلام والجنوح إلى العدل . فبنى وعمّر وبعدله وحسن حكمه بشّر ، حتى أصبحت سنه ثلاثاً وعشرين سنة .

أما سوفزاي الذي حكم شيراز ودانت له ممالك فارس ، أخذ يدلّل وبفضائله في إجلاس قباذ على العرش يؤول . فاغتنمها الحاسدون فرصة ، ومن قلب قباذ اقتلعوا المحبة . فأرسل له جيشاً بقيادة سابور الرازي بعدما صالحه وعلى فرق جيشه نصّبه . فتوجّه اليه طالباً توثيق يديه وإغلال رجليه . فلما وصل وبأمر قباذ أمر . نزل سوفزاي تحت أمره وإطاعة مليكه . فجاء إلى قباذ الذي حبسه ومن ثم

عذّبه . لكن أصحاب الرأي رجوه ، وبإطلاق سوفزاي استشاروه . فما كان منه إلا أن تعنت وبهلاك سوفزاي تمسك . فقام عليه الشعب وخاعوه ولابن سوفزاي سلّموه . ووضعوا مكانه أخاه جاماسب . لكنه عاد واستلم حكمه بمساعدة ملك الهياطلة وابن سوفزاي المسمّى بزرمهر الذي لم يقتله ، بل أكرمه وخدمه وبحسن الأخلاق غمره . فأطلق سراحه وتوجّه معه إلى ملك الهياطلة . فنزلا قبل الوصول في بيت دهقان مشهور بالأصول في منطقة الأهواز . وكان له بنت جميلة تفوق الحسناوات حلاوةً وحيلة . فتزوجها قُباذ وتوجّه طالباً المساعدة من ملك الهياطلة . فساعده وعلى أهل بيته نصره . فاستلم الحكم من جاماسب دون أن يُحاسِب . وأخذ يربي ابنه كسرى المولود من بنت الدهقان ، على المحبة والإيمان . ثم رتّب أمور إيران وبنى بيوتاً كثيرة للنار في بلاد الروم التي غزاها ثم حكمها . فاستتب حكمه واستقر عهده إلى أن حصل في بلاده مجاعة ألزمته التروي والاحتكام الكلي إلى رجل كان قد دخل خدمته واشتهر بفصاحة لسانه وغزارة عقله ، وهو مِزدك الذي أشاع الاستيلاء على خزائن الأغنياء في وقت المجاعة . فعمّت الفوضى وكثرت البلوى والسرقة . فتذمر قُباذ للأمر ، وأحضر مزدك للتشاور . فأقنعه هذا الأخير بصواب فعله

وسداد رأيه ، لأن الجائع كالملدوغ من سم الحيّة . فإن أعطي له الترياق شفي . وكذلك الجائع إن وجد الطعام فسيسرقه . فتعجب قُباذ من رأيه وجعله مستشار أمره . فعلا شأنه بين الناس ، ودخلت تحت إمرته الآلاف . فانتشرت تعاليمه . وخالف الأنبياء . وأنشأ لنفسه ديناً جديداً عُرف بالمزدكية قوامه الإباحة، خصوصاً إباحة المال والنساء ، لأنهما سبب كل علة وأصل كل ضربة تنزل بالإنسان . فإن أشيعا قُمعت الأخلاق الشيطانية والشهوات النفسية مثل الغيرة والحقد والغضب والفقر .

وكان مِزدك يعرف قيمة نفسه وعلو شأنه عند قُباذ . فاجتمع به مرة وأطلعه على عدم دخول ابنه كسرى في دينه . فما كان منه إلا أن طلبه ، وفي دين مزدك أراد أن يُدخله . فاستمهله هذا الأخير وأجابه بعدم التغيير ، إلا بعد أن يستشير علماءه وكهّانه . فاستشارهم وذهب معهم إلى حضرة قُباذ . فتجادلوا وتناظروا مع مِزدك قائلين : « أيها الرجل ، قد أتيت بدين ضلّلت فيه العابدين ، فإشاعتك للمال والنساء ، تستلزم الاحتكام للعلماء لاختلاط أنسابهم وعدم معرفة أحوالهم . فالوالد لا يعرف ولده . والولد لا يعرف والده ولا يُعرف الكبير من الصغر

والوضيع من الشريف . وإذا مـــات الانسان لا يدري من يرث طارفـــه وتالده ! وإذا استووا ، فمن يبقى للرياسة ويترشح للسياسة ؟ » . وظلوا على مناظرتهم ، حتى بيّنوا جهله وسفّهوا رأيه . فتاب قُباذ ورجع إلى دين زرادشت ، وسلّم مِزدك وأعوانه إلى كسرى . فأخذهم وطمرهم في التراب رأساً على عقب . فلما رآهم مِزدك غَشي عليه ومات بعد أن صُلِبَ وَرُشِقَ بـالسهام . واستلم كسرى مكان قُباذ الذي خجل من جهله وضلالة عقله . ففرّق الأموال ، وبنى بيوت النار تكفيراً عن خطيئتـه وكُبر سَيئته ، ومات بعد أن عاش ثمانين سنة .

١٤

كسرى أنو شروان

كان كسرى يُلَقّب بـ «أنوشروان» أي النفس السعيدة . وكان لقبه يوافق عهده . فلمّا استلم فاق أجداده في بذل الكرم وتوطيد الحكم . وقسَّم ممالك إيران ورتَّبها ، ونظَّم زرعها واستوفى ضريبتها بعد قسمة عادلة نالت الجميع . ففاقت شهرته وذاع صيته وانتشر عدله بين الخلائق حتى دانت له كل الملوك من الشرق إلى الغرب . وفي عهـــده ولد محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم إنه رتب العسكر وسلّم زمام قيادته إلى رجل عاقل يسمّى بابك . وأمر ببناء قصر شاهق ، ليشرف منه على الفرسان وأشجع الشجعان . فلما تولى أمره بابك . طلب

حضور كل الكبـــار من الفرسان وغير الفرسان أكثر من مرة . ثم كان يصرفهم بعد ذلك . فلما علم كسرى بالأمر. لبس درعـــه ، وحمل سيفه ، وركب سرجه ، وغطى وجهه ، ومرّ أمام بابك عارضاً نفسه بأشجع الحركات . فتعجب بابك من أمره وزاد من مرتبه . فضحك كسرى للأمر وأقر لبابك بالمعرفـــة وطول العمر. فقرّبَه لنفسه وزاد من أعطياته . وحثه على طريق الاستقامة وأخذ الأمور بالتّروي والمهادنة .

وأراد كسرى أن يطوف في أنحاء ممالكه لينظر في أحوال رعيته . فخرج مع عساكره إلى جهة خراسان . فعبر على جُرجان ثم سارية وآمُل . وتوقف في أرض خضراء يكثر فيها العشب والماء . فسره المنظر لروعته وعذوبة هوائه . ولما أراد أن يقيم ، ومجلسه في تلك الناحية يستديم . حذّره أعوانه وكبار قواده من هجمات الأتراك على هذا المكان، لأنه الممر الوحيد لهم إلى إيران . فأمر بسد الطريق بسور عظيم حصّنه وبوّبه وبأبراج طوقه ليأمن المنام لسكان ذلك المكان . ثم ركب البحر إلى ممالك الان الذين أطـــاعوه وبهداياهم أتحفوه . فأكرمهم وأحسن اليهم . ثم أدّب أهل كرقجان من بلاد الجبل لشرهم وسوء خلقهم . فأطاعوه

بعد أن أفنى الكثير منهم . ووضع عليهم قائداً من قواده.
وعاد إلى المدائن حيث لاقى المنذر عامله على بلاد العرب.
فاحتمى الأخير فيه بعد أن غار عامل قيصر خالِد بن جبلة
على بلاد المنذر . فاحتدم كسرى وأرسل يهدد قيصر الروم
ويدعوه إلى الاستيقاظ من الغرور وتقدير عواقب الأمور .
فبعث له الأخير رسالة يحطُّ فيهـــا من قدره ومن مكانة
سلطنته . فسار اليه بعد الاجتماع بوزرائه وأصحاب رأيه .
فوصل إلى أذربيجان حيث دخل بيت النار . ففرّق الأموال
ونصح العُبّاد . وتابع سيره حتّى وصل إلى سوراب فدكَّ
سورها الشاهق بالحجارة والمجانق ، ودخلها عاملاً السيف
برقاب أهلها . وأكمل طريقه وأخذ قلعتين حصينتين هما
عرائش الروم وقالينيوس بعد أن قاتل قيصر وغلبه غلبة قضت
على جنوده وآلات حربه . وظلّ سائراً حتّى وصل أنطاكية.
فحارب أهلها الذين رفضوا الطاعة . وظلّ على ذلك ثلاثة
أيام حتّى افتتحهـــا ومن كنوزها وخزائن قيصر أفرغها .
وأخذ أهلها أسرى ووضعهم في مدينة تشبه أنطاكية بناها
خصيصاً لهم قرب المدائن . ثم فاوض رسول قيصر الذي
جاءَ طالباً السلام وإحلال الأمان . فوافق على أن يدفع
له خراج كل سنة ملء عشرة من جلود البقر ذهبـــاً ،

وتابع طريقه إلى الشام فالأردن بعد أن نصب على أنطاكية الجديدة نصرانياً من الأهواز يُدعى شيرويه .

وكان لكسرى زوجة نصرانية حملت منه ولداً سماه نوشزاد . فلما نشأ وكبر . مال إلى النصرانية دون الزرادشتية. وخرج بثلاثين الف فارس من جنديسابور التي هي مقر حكمه ومكان نشأته ، لمحاربة والده كسرى لمّا سمع بمرضه وشدة وطأته عليه ، داعياً بشعار قيصر واتباع دين المسيح. فعرف والي المدائن وراسل كسرى مُعلماً إياه بخروج ابنه عن طاعته . فطلب منه قيصر أن يجهّز جيشه لمحاربة ولده وتأديبه إذا لزم الأمر . داعياً إياه إلى إراقة الدماء في جيش الأعداء. وإذا صادقه ولده دعاه ألا يرحمه ، فالقتل إذا لزم وعدم السماح إذا ندم . فتوجّه والي المدائن مع جيشه إلى جنديسابور ، ولاقى نوشزاد وأصابه بالنشاب . فرجع يبكي ويئن وإلى والدته يحن . طالباً منها التسبيح ودفنه على دين المسيح . ثم تنفس وخرجت روحه . فدفنوه كما طلب .

واتصل بكسرى في ذلك الوقت الحكيم المشهور والغلام المغمور بُزرجمَهر . فقد كان غُلاماً يعمل في خدمة صاحب دكان للتنجيم . وكان وزير كسرى قد قصد صاحب

الدكان ليسأله تفسير منـــام رآه كسرى ، أعيا المنجمين تفسيره والفلكيين تحليله . لكن صاحب الدكان ما عرف . وبحضرة كسرى مـــا شرف . فعرف بُزرجمَهر تفسير المنام ، ولم يرضَ بقوله إلا لصاحب الأمان كسرى أنو شروان . فتوجَّـــه مع الوزير ليرى كيف يكون التيسير . وبينما هما على الطريق ، تعبا ، فاستراحا تحت شجرة مورقة الظلال عُمرها أجيال . فنام بزرجمهر تحتهـــا ، ونزلت منها حية شمّته ولم تلسعه . فتعجب الوزير للأمر ، وأخبر كسرى ببزرجمهر . فاستقبله كسرى وفسَّر له المنام الذي أعيـــا الحكام . فاتصل به وجعله من علمائه حتى استطاع بلسانه وخصب عقلـــه من أن يصير كبير العلماء وأعظم الأمراء . وكان كسرى يحبـــه وعلى غيره يؤثره . فكان إذا اجتمع ، بحضور غيره ما اقتنـع . فهو المحدِّث والحكيم والمفضَّل بين الجميع . فلسانه لا يفتأ يتكلم إلا عن العقل والصبر والانتبـــاه للأمر ، حتى أصبح الملك لا يستريـح إلا بسماع بدائع حكمه وروائع كلمه . فأفاض عليه النِّعم لما قاله من حِكَم . وأعطاه في ليلة ما مقداره أربعمـــائة ألف درهم .

وكما جرى لبزرجمهر كذلك جرى للوزير مهبوذ الذي

أحبه كسرى وأبعد عنــه البلوى . فعامله بالإحسان وأنعم عليه الخيرات . وكان أنو شروان لا يأكل طعــامه ولا يشرب شرابه إلا من مطبخ الوزير . ولا يقدمــه له إلا ولدا الوزير اللذان كانا يلازمان خدمة الملك . لكن الحسد أعمى والشر بلوى ، وقلب الحاجب زروان يطفح بالحُمّى التي أكلت جسده من نــار الحسد ولهيب الجسد . فكان يتحين الفرص للإيقاع بمهبوذ . لكنه ما استطاع لثقة الملك فيه ومحاولات مهبوذ ليتقيه . فلجأ إلى السحر بواسطة يهودي كان قد قصده في خدمة لدى الملك . فأخبره بحسده واطّلع على خطته القاضية بإخباره عن طعام كسرى . فإن كان فيه لبناً ، نظر اليه راقياً عليه . وفي ذات صباح أحضر الغلام طعام الإفطار . فكان لبناً وشهداً وماورداً . فنظر إليه اليهودي قبل تقديمه لكسرى الذي ما أن تهيأ لشربه ، دخــل زروان وحذّره من اللبن الممزوج بالسم . فتقدم ولدا مهبوذ وشربا منه فماتا للحال . فهبَّ كسرى واقفاً ونحو قصر مهبوذ جارياً . فقتله وأهله منتقماً لفعله . ثم خصَّ الحاجب بأعلى المراتب . فآمنه ووثق منه ، وبكل الهدايا والخيرات أنعمه . لكنه عاد وشكَّ فيه في محاورة بين جالسيــه . فقد تكلموا عن السحر والرقي بالنظر . فساورت كسرى الظنون ، خصوصاً بعدما تذكر ما كان

بين الحاجب والوزير . فأحضر زروان وذكر حديث الألبان. فتعتع في كلامـــه مُحدّثاً بسره . فسجنه الملك وبعث في طلب اليهودي الذي ما أن جاءَ ، قصَّ القصة على الجلساء وأكابر العلماء . فأمر الملك بصلبه مع حاجبه . فَصُلِبا ورُشِقا بالسهام قصاصاً لفعلتهما . أما كسرى فقد ازداد ندماً ، وبحث عَمَّن وُجِد حياً من عائلة الوزير فوجد ابنته وبعض رجاله . فأكرمهم وأحسن اليهم وفرّق عطاياه على الفقراء تائباً على فِعله وتسرع عقله .

ظلّ كسرى ينشر الرحمة وينظر في أمور الرعية . ففاض عدله واشتهر اسمه في إيران وتعداها إلى توران . فسمع به الخاقان وبأفعاله العظـــام . فأحبَّ أن يتقرب منه ويسأل عنه . فبعث اليه مع الرسول أرطـــالاً محملة من الهدايا والكنوز . لكن غاتفْر ملك الهياطلة ، لم يرض بهذه المصادقة لأنها تضره ، وملكه تسلبه . فأغار على الرسول ونهبه من المحمول لمّا مرَّ من أرضه متجهاً إلى إيران . فجمع الخاقان جيشاً للثأر من غاتفْر . فالتقوا على مايَ مُرغ . فتلاطموا وتلاحموا لمدة أسبوع . ولما كان اليوم الثامن خَفقت رايات الخاقان بالظفر ومُني الهياطلة بالكَسر . فارتدوا إلى مناطقهم، ونصّبوا ملكاً جديداً يُدعى فغانيش ، وقرروا إرساله إلى

كسرى لطلب المساعدة وامداد المعاونة ، لكن هذا الأخير لمّا علم بانتصار الخاقان وانكسار الهياطلة بالرغم من كثرة عددهم وقوة جيشهم . جمع قــواده ووزراءَه للتشاور والتداول في أمر الخاقان . فنصحوه بالمماطلة مؤنبين الهياطلة لأنهم لاقوا جزاءَ فعلهم وطول يدهم . لكن كسرى اتهمهم بالجبن وتشمَّر لمقـــابلة الخاقان . لئلا يفترض الأخير أنه ارتعب منه وفزع بطشه . فتوجَّه بجحافله إلى جُرجـــان عازماً كسر شوكـــة الخاقان، الذي ما ان سمع بقدومه وقوة أسوده حتى آثر الملاينة وارتضى المسالمة . وبعث اليه برسول يسأله المصادقة ويخبره عن ملك الهياطلة لمّا اعترض رسوله المحمّل اليه بهداياه وأنفس عطاياه . فاستقبله كسرى مُظهراً كرمه وحفاوته . وظلَّ عنده مدة شهر . ثم أحضره مع رُسل الهند والروم وسائر البلاد ليشاهدوا قوتـــه وشجاعته في منازلة الفرسان ومقاتلة الغِربان . فلما رأى ذلك رسول الخاقان صُعق . ومن قوة كسرى شهق . ثم أحضره كسرى إلى قصره وأمره بأخذ رسالته إلى ملكـــه الخاقان ، الذي لمّا قرأها وقرأ ما فيها من قوة الشوكة وعظم البطولة ، قرر مهادنة جانبه وتزويجه ابنته . وظلت الرُسل تنتقل بين

الجانبين ، آخذة من كسرى سؤالاً ، وجالبة من الخاقان جواباً ، حتى قبل كسرى الزواج من ابنة الخاقان بعدما وافق العلماء وكبار الكهّان . واختـار من أصحابه شيخاً عاقلاً يسمّى مهران ستاذ . وطلب منه السفر إلى الخاقان لاختيار بنت من بناته تجمع بين كرم الحسب وشرف النسب ولا تنتمي إلى أولاد الإماء بل إلى أشرف الكبراء . فسار الرسول بموكب عظيم . فلما وصل أكرمه الخاقان وأعز مقدمه ، وأنزله في موضع يصلح له . ثم أدخله على بناته الخمس . فاختار واحدة ليست كغيرها فقد كانت بلا تاج ولا طوق ، متذكّراً قول كسرى قبل وداعه : « لا تغرّنك الحلي والحلل بل اختر من كانت أرفع علماً وأسمح وجهاً واختلافاً عن غيرها » . فكانت التي اختارها بنت الخاقان من الخاتون الأصيلة النسيبة ، وقد كره الخاقان تزويجها لكسرى ، لحبها وأصالة نسبها ، فلما علم الخاقان باختيار الرسول ، شكا همه إلى الخاتون واجتمع مع المنجمين الذين بشّروه بزواج سعيد وثمر مديد لإيران وبلاد توران . فوافق وأرسل ابنته بما خفّ حمله وغلا ثمنه . فاستقبلها أنو شروان وعقد زواجه عليها ، وبالغ في إكرامها وإعظامها . ففرح الخاقان برضى كسرى وبسرور ابنته .

فتنـــازل له عن سمرقند والشاش والسغد . فاتسعت بذلك رقعة ممالكه وعظمت مسؤولياته . فساس بالعدل والإخلاص. وحوّل الصحاري إلى جنـــات والبور إلى عمران . وقطع دابر اللصوص فدخل الجميع تحت طـــاعته وقدّموا له الخراج من الروم والصين وسائر الأقاليم .

١٥

بزرجمهر والشطرنج وكسرى

لم يرضَ شنكل ملك الهند بالتزام الخراج والدخـول تحت طاعة كسرى . فأرسل له مع الرسول الهدايا وآلاف العطايا مع لعبة لم تكن معروفة هي الشطرنج ، قائلاً له مع رسوله : « إذا استطعت أن تحرك الأحجار وتعرف كيفية الإدبار ، ثم تضعها في مواضعها لغلبـة أعدائها ، فإليك مني الخراج . وإن عجزت عن ذلك ، فلا تلزمونا الخراج والتزموه ، فحقّ عليكم أن تقدمـوا العلم ولا تتقدموه » . فسر كسرى بذلك واستدعى مفكّر دولتـه ومخلّص شعبه بزرجمهر ، الذي وضع التماثيل في الصفوف. فوضـع الشاه في القلب ، ورتب الدستور على اليمين ، ورتب الميمنة والميسرة ، وقدّم الرجالة أي البيـادق بعد

أن أقام على كل طرف من الرقعة مبـــارزاً أي الرخ ، ورتب الفيل والفرس من جـــانبي الشاه . فسوّى صفوفها حتّى تقابلت وتوازت مثل الصفوف المعبأة يوم اللقـــاء . وظلّ بزرجمهر في تفكيره بالأمر ، بعدمـــا عجز العلماء عن استخراج كيفية اللقـــاء والتخلص من الأعداء . حتّى استطاع أن يستخرج طريقة لعبها وفكّ رموزها بعد أن وضع بفطنته وذكائه نرداً من خرزتين من العاج منقطتين بالساج . فلما انتهى ، قصد أنو شروان الذي أكبر أمره وأعظم قيمته وأرسله مع رسول ملك الهند بلعبـــة جديدة تُسمى النَّرد . طالباً منه فكّها ، ومعرفة طريقة لعبها . فإن عرف أخذ الهدايا والنفائس . وإن لم يعرف وضـــع فوقها (أي الهدايا) ما ماثلها وأرسلهـــا إليه . فاستقبله ملك الهند ونزل مع علمائه وكبار حكـمائه في حل النرد . فلما انقضت المدة المعينة ، جاؤوا إليه مُعْتَرِبين عن عجزهم وعدم قدرتهم في معرفة الطريقة للوصول إلى الحقيقـــة . فدلّهم بزرجمهر على الطريقـــة الصحيحة للعب النرد . فأثنوا عليه كل ثناء وودعوه بكل بهـــاء ، مرسلين معه الخراج وطلبات أنو شروان مهنئين الملك بعالمه بُزُرجمهر.

أما الشطرنج فوضعت في بلاد الهند تلبية لرغبة زوجة

جمهور ملك الهند ، الذي توفي وترك ولداً اسمه جوّ .
وتزوجت الزوجة من سِلْفِها وأنجبت ولدها الثاني واسمه
طلخند . فمات الزوج وترك الزوجة تأمر وتنهى وتدير الهند
إلى أن يكبر الولدان ويستلم أحدهما الحكم . وكانت كلما
سألاها من سيتولى الحكم من بعدها أجابت : « من كان
منكما أرفع أدباً وأعظم خلقاً ، وليته أمور الهند وبلاد
السند » . فلما كبرا والحكم سألا ، فضّلت الوالدة
الأكبر على الأصغر لكبر سنه ورجاحة عقله وحسن خلقه.
فلما أفضت بذلك إلى طلخند أبى أن يحكم غيره ، وعلى
العرش يجلس شقيقه قبله . فتركت الوالدة الأمر للوزراء
للتشاور مع العلماء أمام الملكين المتنازعين . فلما سألوا
الجلساء تحزّبوا وفضّلوا لكنهم لم يقرروا . فتقدم جوّ
ونصح طلخند بالاعتدال والموافقة والتمثل بما عمل أبوه مع
عمه حين ترك له ملك الهند . لكنه رفض وأعمال أبيه
نَقَض . فاستعد الأخوان لبدء القتال فقسّم القواد الجيوش
إلى ميامن ومياسر ومقانب ومناسر ، وقدّموا الرجالة أمام
الفرسان في آلات الضراب والطعان ، وأسرجوا الفيلة
لركوب الملكَين . لكن جوّ قبل أن يبدأ ومن جيش أخيه
يَهزأ ، راسل طلخند ثلاث مرات داعياً إياه إلى تجنب
القتال وعدم إراقة الدماء ، طالباً منه معاونته ومؤازرته ضد

الأعداء ، مقترحاً عليه تقسيم الأراضي بينهما . لكن طلخند تعنت وبرأيه تشبث ، وأمر جيشه بالهجوم طالباً منهم — عكس أخيه جوّ — سفك الدمـاء كأنهم أعداء . فلما تزاحفوا وتلاقوا ، غلب جوّ وطلب من طلخند العودة إلى الإيوان ، الذي ما أن عاد واجتمع جنوده عليه حتّى عاود القتال طالباً النزال . فلاقاه جوّ على ساحل البحر . وحفر كل واحد منهما حوالى عسكره خندقاً ، ألقى فيه الماء . ثم إنهم التقوا ، وجرت بينهم وقعة عظيمة قتل فيها جنود طلخند . فلما رآهم مجندلين ، بين الصحراء والخنـدق مقتولين . خرجت روحه من الأسف والهم وهو على فيله. فتقدم إليه جوّ واحتضنه وبكاه ، آخذاً إياه إلى والدته التّي ما أن رأته ميتاً لطمت وندبت وانتحبت كثيراً . وقامت لترمي بنفسها إلى النار . لكن جوّ سارعها ومن النـار أنقذها . فعنّفته ووبّخته على ما فعل بأخيـه . فحلف وأقسم وعلى روح أخيه ترحم ، بأنه لم يقتله ، بل طلعت روحه لِما في قلبـه من حقد دفين وكيد أليم . فصدّقته وطلبت منه عزاءً لوحدتهـا وكبر مصيبتها أن يمثّل لها الوقعة كما جرت على رُقعة . فجمع علماء الهند وأخبرهم بمـا جرى في الحرب . فتشاوروا وفكّروا واستحضروا الأبنوس وعملوا تختاً صوّروا فيه مـائة بيت . ثم عملوا

من الساج والعاج صورة شاهين معتصبين بالتاج مع جنودهما وخيولهما وأفيالهما . ثم صفوها صفوفاً فجعلوا كل واحد من الشاهين في قلب عسكره ، وعلى يمينه وزيره ، ووضعوا إلى جانب كل واحد منهما من الميمنة والميسرة فيلَيْن يتنقلان في ثلاثة بيوت . وجعلوا دون الفيلين جَملين عليهما راكبان، ودونهما فرسين عليهما فارسان ، ودون الفرسين رخّين كأنهما مبارزان يركضان يمنة ويسرة ، ولا يقف قدامهما أحد . ورتبوا الرجالة مصطفين أمام الكل . وكلما انتهى واحد منهم إلى آخر المعترك صار في مرتبة الوزير ، يقعد بجنب الشاه ويختلف بين يديه . ثم كل واحد من هؤلاء المقاتلين إذا رأى الشاه في بيت صاح وأشار إليه بالإحجام والتنحي من ذلك البيت . ثم ان أحد العسكرين غلبوا فسدّوا الطريق على الشاه . فنظر فرأى عساكر العدو قد أحاطوا به من كل جانب ، وسدّوا عليه كل مسلك فمات من الهم والأسف ما بين المعترك .

وكان لكسرى في قصره وتحت أمره ، طبيب ماهر وحكيم باهر هو بَرزويه . استأذنه مرة في الذهاب إلى أرض الهند لجلب دواء مصنوع من حشيشة ، كان قد قرأ عنها . هذا الدواء يعيد الإنسان من عالم الأموات إلى

الأحياء . فأذن له وحمّله التحف الوافرة والهدايا الباهرة لملك الهند . طالباً منه مساعدته وتسهيل أمره . ففعل ملك الهند ووضع علماءَه وحكماءَه تحت خدمة برذويه . فجابوا الجبال والسهول والوديان بحثاً عن الحشيشة ، فما وجدوها. فرجعوا خاسرين وحزنهم مُظهرين . فطلب برذويه من ملك الهند أن يأتيه بالأوفر علماً والأكبر سِنّاً والأوفر فضلاً ليسأله ، وعن سر الحشيشة يُفهمه . فلما اجتمع به دلّه على كتاب كليلة ودمنة الموجود في خزائن ملك الهند . لأنه – أي الكتاب – بمنزلة الدواء إلى المريض ، كما هو بمنزلة النور إلى الجاهل . فطلبه وأخذ يطالعه . وكان كلما انتهى من فصل ، كتبه بعدما حفظه وإلى انو شروان أرسله . فلما انتهى منه رجع إلى كسرى . فبذل له الهدايا وقدّم العطايا . لكنه لم يختر منها إلا ما ستر جسده وكفى نفسه . وطلب من كسرى أن يتفضل بزرجمهر عند تحريره الكتاب ، أن يخصص له باباً يشتمل على ذكره وسيرته . ففعل ومن ثم في وقت لاحق نقل الكتاب إلى العربية عبد الله بن المقفع .

ولما كان كسرى يحب الصيد متحرراً من كل قيد . فقد خرج مع بزرجمهر لاصطياد الغزلان والأوعال . فلما

انتهى وقد نعس ، نـــام في حجر بزرجمهر على أرض معشبة ملأتها الخضرة . وبينما هو نائم إذا بطائر أسود يخطف إسواره ويقتلع جواهره . فتطيّر بزرجمهر من ذلك وأصبح كالأسود الحالك . فلما استفاق كسرى ورأى ما هو فيه من تغير المزاج ، ظنّ أن ريحاً هوجاء وعاصفة موجاء قد هبّت وهو نائم . فعنّفه وأنّبه وعن تفكيره بأنه يستطيع أن يغيّر أحوال الطبيعة ، شتمه . ثم اتجه إلى قصره وهو غاضب ، وأمر بسجن بزرجمهر والامتناع عن المثول في حضرته . فبقي على ذلك مدة وزاد في سجنه حدة . لمّا كان كسرى يسأل عنه فيجيبه بواسطة قرين كـــان يخدم الملك . بأنه أحسن منه حـــالاً وأكبر مقاماً . فاستشاط كسرى غضباً وامتلأ غيظاً . وأرسل كـــاهنه مع صاحب سيفه ليسأله عما يعني وهو في حبسه من الشدة والضيق . فأجابه : «كل شيء له نهاية حتى ولو كان بدون بداية ، فعلامَ التكبر والتجبر وزيادة التأمّر ؟ مع العلم أنهم سينتهون بانتهائك وسأخرج بعد ذهابك » . فتعجب كسرى لقوله ولطول صبره . فأفرج عنه وسامحه . ثم استدعاه ليكون منجاه بعد عجز الآخرين ، لمّا بعث له ملك الروم صندوقاً ما فيه غير معلوم ، جعله شرطاً لالتزام الخراج ، إن هو حزر ما فيه وفكّ عن أسراره . فحضر بزرجمهر وأثنى

على الملك الذي ندم على فعله خصوصاً بعد كفّ بصره . وطلب منـــه حل اللغز وفك الرمز . فأخبر الملك أن في الصندوق درراً ثلاثاً . إحداها مثقوبة ، والثـــانية نصفها مثقوب ، والثـــالثة بكر لم تثقب . وكان قد عرف السر وهو قادم على الطريق . لما التقى بامرأة لها زوج وولد . وثانية لها زوج وليس ولد . وثالثة كانت عذراء لم تمسها يد إنسان . فتعجب كسرى منه وأزاح البلوى عنه بإكرامه وتعظيمه وبإظهار أسفه . فدعـــا بزرجمهر للملك وأخبره بحقيقة الطائر لما نام في المتصيد .

وكسرى ، كما نلاحظ ، الآمر الناهي والملك الباقي . فقد أخذ منزلة الوزير واستفرد لنفسه بوظيفـــة المشير . فهو المتصرّف في كل مسألة والمدبِّر لكل غزوة . فالعدل مجراه والبريء يأواه لسداد رأيه وكثرة وزرائه . فهو الحكيم مع الحكماء ، والكاهن مع الكهّان ، لذلك اشتهر اسمه وذاع صيته وحنت الملوك رؤوسهـــا لِكبر قيمته وعلو شأنه إلا ابن ملك الروم ، الذي توفي والده وأخذ مكـــانه . فلما بعث إليه كسرى يعزّيه وعن حزنه يُسلّيه . استشاط غضباً وامتلأ حقداً ، لأن الرسالة التي وصلته كُتب عليهـــا : « من كسرى إلى قيصر » . وكان يريد أن يُبدأ باسمه

قبـل اسم كسرى . فعنّف الرسول واستقبله كالمسلول وأنزله بمكان غير مأمون . فما أن رجع ، حتى أخبر كسرى بعظم البلوى . فقرر الحرب والتـ أهب للضرب . وسار بجيوشه قاصداً حلَب . فالتقى الروم الذين جـاؤوا من عمورية . فتلاطموا وتزاحموا وضُيِّق على كسرى الحصار . فبعث في طلب المؤونة والمال من مازندان . لكن بزرجمهر أشار عليه بالاستدانة قبل وصول الأمانة . فبثّ رسله في البلاد طالباً الإمداد . فلم يستجب له إلا خفاف (اسكافي) سمع الطلب من الأطراف . فوضع أموالــه وأرزاقه تحت تصرف الملك على شرط أن يُعَلِّم ولده الوحيـد الأدب والخط وأسرار الفلك . فلما عرف كسرى استعظم الطلب ورفض تعليمــه الخط والأدب لأن ابن المحترف إن تعلم غير الحِرف ، وصار أديباً عـالماً ، غيَّر عقله واستعظم أمره ، فلا يأتي منه إلا الحسد وتدبير الخطط . لذلك رفض طلبه ورد ماله وأنقذ نفسه من حيث لا يدري . فقد جاءه رسل الروم يطلبون السماح ويرجون لقيصر الإصفاح ، لأنه شاب لم يُدَرَّب . وعداء كسرى لم يُجَرَّب . وزادوا له الخراج أضعافاً والهدايا أحمـالاً .. فَسُرَّ منهم وصفح عنهم ورجع منتصراً إلى طيسفون . فما أن ارتاح مدة حتى أثقلته الأمراض وتنازعته الأوهام . فاجتمع إلى بزرجمهر

وطلب منه مساعدته في اختيار خليفته من بين أبنائه الستة. وقد كان يفضل الأكبر هرمزد لكبر سنه وقوة بدنه ووفرة عقله وغزارة علمه وأدبه . وكان قد وضع له حُرّاساً في السر يستقصون أخباره ويتتبعون حركاته . فأخبروا والده بحسن سيرته في معاملة عشيرته.فعهد إلى بزرجمهر امتحانه.

اجتمع الحكيم المشهور بالخلف المذكور مع طائفة من العلماء والحكماء . وأخذوا يسألونه عن الحياة والممات والخلود والبقاء . وعن الرحمة والمعاملة والتلطف والمسايرة . وعن الشجاعة والقوة في مواجهة الأخطار وعبادة النار . فجاوبهم وبكلماته أسحرهم ، حتى أنهم تمادوا ومن حسن كلامه استزادوا . ثم أخبروا والده بتعيين الخلف بعد رحيل السلف. فأعطاه رسالة الخلافة طالباً منه تنفيذ الرسالة ، مُحافظاً على ذكر الإحسان الذي اشتهر به ملوك إيران وأوصاه بالبنيان والعمران وخدمة كل ممالك إيران ، وبالعدل والطاعة، ومد العون إلى الفقراء والمحتاجين والنظر في شؤون المساكين. مُتّخذاً العقل في تحكيم الأمور وتقبل الشكاوى بكل سرور.

١٦

ظهور بهرام الملقب بجوبين

استلم هرمزد عرش إيران بعد وفـــاة كسرى . فحكم بالعدل والإنصاف ، لكنه عـــاد وتغيّر إلى الإجحاف . فبدأ القتل والتنكيل مُبتدئاً بوزراء أبيه . وكان من بينهم كاتباً داهية في المعاملة والمسايرة . فسجنه ومنع عنه الطعام. فاشتكى الأخير إلى كبير الكهّان الذي خالف أمر هرمزد وأخذ له من الطعـــام ما أراد . فلما عرف الملك ، قتل الأول وأطعم الثاني طعاماً مسموماً ، أهدر روحه وأطفأ عقله . فعمّ الظلم البلاد وقتل الكثير من العُبّاد .

ثم ان هرمزد أراد القضاء على سميـــاه بن برزين . فأحضر صديقَ سمياه الأمين . وطلب منه أن يشهد ضده حتى يستطيع أن يحبسه ويخرس صوته . فلما اجتمعا وأخذ

يسأل عن أخبارهما ، قام الصديق بهرام ، وشهد ضد سمياه ووبخه لأنه تمسك باختيار هرمزد وليّاً للحكم بعد كسرى. فأدت شهادته إلى حبسه ومن ثم إلى قتله ، بعدما زاره هرمزد مخبراً إياه بقتل سمياه ، طالباً منه إخباره عن السر الذي أخفاه . فأعلمه بأن في خزائن كسرى ، صندوقاً يزيح عن شعبه البلوى . فلما أحضره وقرأ ورقته القاضية بزوال عهده على يدي أقارب زوجته بعد اثنيّ عشره سنة ، قتل بهرام بعدما سجنه وعذّبه .

لكنه عاد وأصلح نفسه ، مُغيّراً حكمه . فأخذ يطوف في البلاد داعياً إلى نشر المحبة ، وبث الشكوى حتى ولو كانت عن طريق ابنه . فقد كان له ولد يُدعى كسرى ويُلَقّب ببرويز . دخــل فرسه مرة إلى حديقة كبرى . خرّب أرضها وأكل زرعها . فشكاه صاحب الحديقة إلى هرمزد الذي قطع أذن الفرس وذنبه . وعوّض على صاحب الحديقة بمال كثير . فاشتهر هرمزد بحامي الضعفاء والفقراء وقاصم ظهور الأغنيــاء والأقوياء . وظلّ حاكماً وظِلّ العدل ناشراً ، إلى أن تآلبت عليه الملوك من جميع الحدود ، فخرج ملك الروم بالآلاف . والخاقان ساوه شاه بعشرات الألوف . وملك الخزر وملك العرب بأعداد كبيرة وآلات

عديدة كلهم يريدون ملكــه ويعملون ضده . فاجتمع مع الوزراء والقواد ، علّهم يصلون إلى قرار ويجبرون أعداءَهم على الفرار . فقـــال له وزيره : « ضد هذه الأعداد لا يمكنك الإمداد . حتى ولو كان جنودك كالأسود وفرسانك كالسدود . والرأي أن تجنح إلى السلام في موضع ، وأن تنازل البعض في موضع » . فعمل هرمزد بكلامه وتراسل مع ملك الروم طالباً منه السلام واعداً إياه بالأراضي التي أخذهـــا كسرى منه . فانكفأ الأخير إلى مُلكه واستكفى بحكم شعبه . أما ملك الخزر فقد أرسل إليه قائداً يُدعى خرّاد ، فأهلك بلاده كأنه الجراد . ثم استولى على أرضه وأدخله تحت طاعته .

أما ملك الترك ساوه شاه فقد تريث قليلاً في أمره نظراً لضخامة عَدَدِه وعُدَدِه . وأخذ يستشير في أمره أصحاب رأيه ، ومنهم الشيــخ الجليل والعـــالم الكبير مِهران ستاذ الذي كان يعمل في خدمة كسرى . فأخبره بأنه لما ذهب لخطبة والدته ، (والدة هرمزد) بنت الخاتون من الخاقان ، لم يرض بتزويجها إلى كسرى إلا بعد إطلاعه على أخبــــار المنجمين الذين أخبروه ببشارة ولد (هو هرمزد) يحكم بلاد إيران وتوران بمساعدة فارس بطل يلقب بجوبين . ففرح

هرمزد وأرسل في طلـــب المبعوثين للعثور على جوبين . فوجدوه حاكماً على اردبيل . فجلبوه وفي حضرة هرمزد وضعوه . فأكرمه وأعز مقدمه وسلّمه جيشه وأمره بمحاربة ملك الترك والصين وإثبات ما تنبأوا به عن جوبين . فاختار اثني عشر ألف فارس ممن حنكتهم التجـــارب ونجذتهم النوائب . لا يزيد عمرهم عن الأربعين ولا يصبح تسعة وثلاثين . وذهب لقتال ساوشاه بعدما أهداه هرمزد علماً على شكل ثعبان وودعه لقتال الخاقان . ثم سار وجاوز إقليم طيسفون . فرآه الرسول الذي أرسله هـــرمزد سراً لتتبع أخباره بعدما شكّ بحاله . فرجع إلى هرمزد وأخبره بصحة شكوكه وحقيقة أخباره ، خصوصاً بعدما قتل بهرام جوبين رجلاً من أتباع ملك الصين ، ولم يقل « بسعادة الملك» . فما كـــان من هرمزد إلا أن أوفد رسولاً إلى ملك الترك ليتعرف على أحواله وينظر في اعداده . فتوجه ومرّ بجيش بهرام وأخبره بذهابه إلى الخاقان . ثم تابع طريقه ووصل مقصده . فاستقبله ساوه شاه بعدما قدم له هداياه .

في هذا الوقت ، كـــان بهرام جوبين قد قدم ، وفي ضواحي أراضي ملك الترك خيّم . فأرسل ساوه شاه ابنــه مستطلعاً . فجاءه بأخبار الحرب منذراً . فقام ليقتل الرسول

لكنه لم يجده لأنه تمكن من الفلول . ثم بعث بمفاوضيه إلى بهرام يسألونه السلام والانقلاب ضد ملك إيران . لكنه لم يذعن وبإغراءات ساوه شاه لم يَلِن . فهيّأ نفسه للقتال وحلم بالنزال فرتب جيشه وقسّمه ووضع في كل قسم ثلاثة آلاف فارس ، ليواجهوا أربعين ألفاً في ثلاثة أقسام مقابلة .

ولما كان الصباح بعد ليلة كَثُرَ فيها شرب الأقداح ، تقابل الجيشان . فتقدم ساوه شاه بفيله ناوياً دعس أعدائه بأرجلها . لكن بهرام تصدى لها وبنصاله أصابها . فدخلت خراطيمها وأصابت آذانها . فهاجت وماجت وإلى الوراء عادت . فمشى بهرام وجنوده وراءَها وقتلوا مع الفيلة أصحابها . ثم توجه جوبين نحو ساوه شاه الذي كان يراقب المعركة كأنه في مصيدة لضيق المكان بكثرة الفرسان . فنازله وبسهم اخترق ظهره ، أصابه . فمات للحال بعد فقده كل الرجال الذين انتشروا بالصحراء مخضّبين بالدماء. فلما تم لجوبين ما أراد جلس ليستريح ، ومداواة جسمه الجريح . فجلب له الجنود ساحرَ ملك الترك الذي أظهر له ليلة المعركة رؤيا ظنّ فيها أنه هالك لا محالة . فأمر بقتله واجتناب شره . ثم أرسل إلى هرمزد يعلمه بالأخبار

وكيفية الانتصار. ففرح الأخير وأمر بنثر الدنانير. وفرّق على الفقراء، وأفاض على الصلحاء وعمّر المعابر وبيوت النار وأرسل إلى بهرام يؤذنه بقتال ابن الخاقان بعدما غمره بالخِلع وبالنفائس البِدع.

أما برموذه ابن الخاقان فقد خرج بجيش جرّار للثأر من قاتل أبيه بعد لوم معاونيه. فعبر نهر جيحون ولحق بهرام الذي كان يتصيد في أرض واسعة كالسهول الشاسعة. فلما عرف بقدوم ابن الخاقان، فاجأه بالحيلة وتمكن من جنوده بسهولة. وهرب برموذه إلى قلعة حصينة تسمى أواذ كانت ملجأً لآبائه، ومفرّاً لأجداده. فوكّل بهرام صديقه يلان. وأمره بقتل كل من يصادف طريقه ويعترض جيشه. ففعل يلان بما أُمِر حتى اقترب من القلعة وتمكن من حصارها وأجبر ابن الخاقان على طلب الأمان. فكتب بهرام بذلك كتاباً إلى هرمزد، وأرسل إليه رسولاً. فلما رجع عرف جواب هرمزد بتجهيز برموذه وإرساله إليه. فذهب بنفسه واستلم القلعة. فلما خرج ابن الخاقان تكلم مع بهرام بجفاء وكبرياء مما أثار غضبه وأشعل لهبه. فأمر به مقيّداً وبالسجن منزلاً. فلما مرت بضعة أيام تحادث معه الكتّاب وأشاروا عليه بفتح الباب لئلا يغضب هرمزد. فأطاق سراح برموذه

ونزل في خدمته سائلاً إياه السماح ، والتكلم عنه بالإحسان لمّا يصل حضرة هرمزد . ثم ودّعه ودخل القلعة . فَدُهِش من محتوياتها وكثرة نفائسها . واختـــار لنفسه ما كان لسياوخش وأمر بحمل الباقي إلى هرمزد .

وصل الخاقان إلى حضرة هرمزد فاستُقبل بالترحـــاب كأنه من الأصحـــاب . وكأن الحرب التي وقعت زادت عناصر الصداقة وجعلتها من الصحـــابة . وجلس هرمزد على عرشه ليتفحص الأحمال التي حضرته والأخبـــار التي وصلته عن بهرام بأنه استصفى المغانم وأخذ أحسن المكاسب ثم جاس مع الخاقان ، وجددا عهد الأمان . ووعد الخاقان هرمزد بالدخول تحت طاعته والعمل على خدمته مهما ظلّ على عرش الصين حتى ولو حاربه جوبين . ثم ارتحل من أرضه واتجـــه إلى قلعته . فمرّ ببهرام الذي استقباله مع الأعيان . لكنه لم يلتفت إليه ولم يصرخ عليه . كأن شيئاً لم يحدث بينه وبين بهرام .

ثم إن بهرام رحل إلى بلخ واستلم رسالة من هرمزد مدبّجة بالكلمات العنيفة والعبارات الشنيعة ، يوبخه فيها على الغرور بنفسه ، والحصول على أحسن المغـــانم لنفسه مُرسلاً مع الرسول قميصاً من الشعر ، وسروالاً أحمر ، ووعاءً فيه

قطن ومغزل إلى غيرهـــا مما يصلح للنساء . فلبسها بهرام وجلس في الإيوان وأدخل عليه الأعيان وكبار الزمان ليروا فِعل هرمزد وظنه به ، هو البطل المغوار والفارس القهّار. فوبخوا هرمزد على سوء ظنه وعيب فِعله ، وخرجوا من عنده بعدما أخذ يُظهر ولاء الطاعة للسلطان ، ويدعو غيره إلى عدم إشاعة الفوضى وتجنب البلوى . وذهب بهرام مرة مع رجاله وأعوانه للصيد . فاصطادوا ووراءَ حمار وحشي ركضوا . فأمر بهرام رجـــاله بترك الحمار الوحشي له . فركض وراءه وجرى خلفه حتّى وصل إلى قصر باهر كأنه لساحر . فدخله واستقبله أهله . ولما تأخر عن الرجوع ، انشغلت عليه الجموع . فلحقه يلان إلى القصر الذي دخله. فدخله ورأى بهرام جالساً في إيوان ، حوله امرأة متحلية بالحُلى ، وغلمان قصار كأنهم أقمار . فلما أحست المرأة بدخوله ، أبعدته عن بابها دون أن يرى فِعلها . ثم خرج مع بهرام الذي تغيّر حاله وامتقع لونه . فلما سأله يلان ما بِه، أجابه بكبرياء كأن به داء . فلما وصلا إلى الجموع ، لم يتكلما عن الموضوع . بل أمر بهرام بإقامـــة إيوان كالذي للشاه . ثم أخذ يأمر ويطغى ، وعلى كل شيء لا يرضى. فتنبه أعوانه للأمر وأخذوا يهربون بالسِّر . فهرب خرّاد ابن برزين مع الكاتب إلى حضرة هرمزد . فوصل الأول،

ولم يصل الثاني . لأن بهرام عرف بأمرهما وأرسل جنوده خلفهما . فقبضوا على الكاتب وفرّ خرّاد . ولمّا رجع إلى حضرة بهرام سأله عن سبب الفرار . فأجابه واضعاً اللوم على خرّاد بن برزين الذي راوغه في الهروب من خدمة جوبين ، بعد تغير حاله واستعلاء نفسه . فسامحه ورجع إلى خدمته .

وصل خرّاد إلى حضرة هرمزد وأخذ يخبره بأحوال بهرام ، وتغير نفسه بعد الوئام ، خصوصاً بعد رحلة الصيد . فتعجب هرمزد من تصرفاته . وأرسل في طلب المنجمين لإيضاح أخبار جوبين. فأخبروه عن حادثة الصيد، بأن حمار الوحش هو الشيطان الذي قاده للمرأة الساحرة التي منّته بالسلطنة وحُكم المملكة . لذلك تغير حاله واستعلى نفسه . ونصحوه بتدبير خطة لاسترجاع عسكر جوبين ، لأنه لن يطيع بعد اليوم أمره ، ولن يسير معه . ثم أتاه رسول بهرام بسلة مملوءة خناجر . فكسرها وردها إليه . فلما أُرجعت إليه مكسورة، جمع قواده وأعوانه واستشارهم في خلع السلطان والجلوس على عرش إيران . فزيّنوا له الأمور وزادوا نفسه بالغرور ، إلا أخته التي دعته إلى تجنب المغامرة وسلوك طريق المسايرة والمسالمة . ثم وجهت

كلامها الى القواد والأعيان . فأنبتهم وعلى جرأة أفكارهم حقّرتهم داعية إياهم إلى عدم التفكير بالتاج لأن أخـاها ليس من سلالة الملوك ، ولا يجوز لـه أن يسلك هذا السلوك . لكن بهرام كان قد اقتنع برأيه ، وأخذ يدبر لخطته . فكتب إلى الخاقان يعتذر منه ويسأله الصفح عنه . ثم سكّ نقوداً باسم كسرى برويز بن هرمزد ، وأخذ يتعامل بها . وكتب إلى هرمزد يعلمه بالخروج عن طاعته والانضمام إلى ابنه (أي إلى كسرى برويز) . فلما رأى هرمزد النقود ، وقرأ رسالة بهرام ، تغير رأيه على ولده وظنّ أنه خرج عن طاعته . فبعث أعوانه لقتله والتخلص من جثته . لكن برويز تنبه لأمر قتله ، وفرّ من بغداد لتخليص جسده . فلما صار في اذربيجان اجتمع عنده أكابر إيران ، مع أشجع الشجعان ، واضعين أنفسهم في تصرفه وعدّتهم في خدمته .

لمّا علم هرمزد بخبر فرار ولده، قبض على خاليه كستهم وبندويه ، وحبسهما مع أعوان برويز . ثم اجتمع بوزيره ومستشار أمره آذين كشسب . فتشاور معه في كيفية إرضاء بهرام حتى يفرض السلام . فاقترح عليه مراسلته وطلبَ

مسالمته . فإن لم يرضَ ، توجه إليه بجيش جرّار كالبحر الهدّار . ثم جهز جيشه وارتحل عن الملك تحسباً للأمر . وبينما هو في الطريق التقى بامرأة منجمة تخبر عن الأحوال الكائنـــة . فاستحضرها وخلا بها وأخذ يسألها عن أحوال الملك والعدو . وبينما هما في الحديث مرَّ بهما رجل كان آذين كشسب قد استشفع له ، فأطلق الملك سراحـــه . فتوقفت المرأة عن حديثها وحذرته منه لأنه سيقتله . وحتى يتخلص منه ، أحسن إليه، وأرسل معه رسالة إلى هرمزد يبلغه فيها قتل الرسول الذي يحمل المرسول . فحمله وطار به . وبينما هو على الطريق ، فضَّ الرسالة وعرف المؤامرة. فرجع إلى آذين كشسب فقتله واجتزَّ رأسه وأخـــذه إلى بهرام . فلما رآه مع رأس عدوه ، لم يستحسن فِعله لأنه (آذين كشسب) كان قادمـــاً لإصلاح الحال بينه وبين الملك . فأمر بهرام بذلك الرجل ، فصلبوه .

أما العسكر الذين كـــانوا مع آذين كشسب ، فتفرقوا وعند الملك وبهرام وبرويز تقسّموا . فهـــال هرمزد ما أُصيب به وتَفَرُّق عسكره فأغلق أبوابه وأطـــال حجابه حتى وقعت المصائب في المدينة ، وتحولت عن السكينة .

فكسر المساجين القيود ، وهجموا على هرمزد كالقـــرود وبينهم كستهم وبندويـــه . فخلعوه عن العرش ثم سملوا عينيـــه وفجعوه بكريمتيه . ونادوا بشعار برويز ، الذي جـــاءَ مُسرعاً عن طريق أرمينية فوصل بغداد واستقبل بالترحاب . فهدأت الخواطر وانفرجت السرائر .

١٧

العدوان اللدودان

أما برويز فإنه لما استلم ، بالعدل والشدة حكم . فاشتهر صيته وذاع اسمه وكان عهده من أحسن العهود التي مرت على إيران .

ذات يوم دخل على أبيه طالباً السماح لأنه راح مُعتذراً على ما بدر منه . وأنه إذا هرب فلحفاظ رقبته وسلامة جسده. فصدّقه والده وسامحه وطلب منه الانتقام من بهرام فوعده خيراً وطمأنه متمهلاً حتى تهدأ الأحوال ويضعف بهرام . لكن هذا الأخير لم يهدأ ، وأراد أن ينتقم من برويز لأنه تبوأ ، فوجه جيوشه نحو النهروان ولاقـــاه برويز خارجاً من طيسفون . فوقفا متقابلَين على الضفتين . وأخذ برويز يمالقه وبقيادة جيشه يعده ، إن هو استسلم وإليه احتكم .

لكنه هزىء منه وصمم على قتله وأمر جنوده بمراسلة جنود برويز يدعونهم للانضمام، ويغرونهم بالاستسلام فما قبلوا وقالوا: « الا ساعة اللقاء » . فاشتبك الجيشان في حرب هوجاء تمكن فيها بهرام من الانتصار ، وتحقيق حقده الغدّار . فلما رأى برويز جنوده مجندلين بالعراء تحت السماء الزرقاء ، هجم مع أصحابه وكبـــار قواده على بهرام فما استطاعوا المقاومة ووجدوا قوة مانعة . فانكفأ برويز راجعاً وفرس بهرام صائباً . فترجل هو أيضـــاً عن حصانه . وأخذا يتضاربان ويتصاولان لكنهما لم يقتلا . فلما مضى النهار ، رجعا إلى معسكريهما بعدما أمر برويز بقطع الجسر القائم فوق النهر . فَقُطِـع . ثم توجه إلى طيسفون وأخذ يحصّن المدينة بالأسوار المنيعة . ثم دخل على والده وأخبره بالهزيمة النكراء بعد الحرب الهوجاء . وطلب نصيحته في الاستعانة بالعرب الذين هم تحت الطلب . لكن الوالد لم يرضَ لقلة مـــالهم وضعف عُدَدِهم . وأشار عليه بملك الروم الذي ينتمي إلى شجرة أفريدون . وبينما همـــا في هذا الحديث علَت الصيحات باقتراب الأعداء . فهرب برويز مع خاليه وتركا المدينة بعدما قتل أحدُ الخالين الملكَ هرمزد لأنهما ظنّا بعد دخول بهرام طيسفون أنـــه سيسلمه الحكم لغياب الابـــن .

دخل بهرام المدينة غير آبه بالأسوار المنيعة . فاختــار ثلاثة آلاف فارس وسلّم أمر قيادتهم إلى بهرام بن سياوش وأمره بلحـاق الذين فروا وبحماية ملك الروم استجاروا . فسار حتّى وصل إلى دير قديم كان قد قصده الثلاثــة الهاربون . فلما علم بندويه خال برويز بقدومه ، أمر ابن أخته بالهرب مُفدياً روحه ، لابساً ثيابه وتاجه . ثم قام وجلس على قمة الدير . فلما أيقن أنهم رأوه وعن برويز لم يفرقوه نزل وخلع الثيـاب . وأخذ يكلمهم من فوق الباب ، طالباً الانتظار حتّى ينتهي الملك من الصلاة . فآمنه ابن سياوش ونزل عند طلبـه . ثم أخذ يماطلهم مضيّعاً وقتهم . فلما مرّ يومـان ، طلب الأمان وأفصح عن نفسه وبيـان قصده . فقيّده ابن سياوش وأخذه إلى بهرام الذي سجنه ريثما يرى أمره .

ثم ان جوبين بعد النصر المبين ، أخـذ يتدبر للأمر مُنتشياً بفرحة الظفر . فجمع أعيان إيران وأعطاهم الأمان. فتكلموا بين مؤيد ورافض وناصح وكـاذب . ثم أقرّ رأيه ، ونصّبَ نفسه ملكاً على إيران ، وكتب إلى الشعب رسالة يدعوهم فيها إلى الانقياد لحكمه والسير حسب رأيه. ومن لم يرد ذلك ، نصحه بالابتعاد والالتجـاء إلى ملك الروم كما فعل ملكهم المروم .

أما بندويه في سجنه ، فكان يتملق وعلى ابن سياوش يتخلق . وظلَّ على هذه الحال حتى أمَّنه الأخير وأخرجه إلى العالم المنير ، بعدما اغترّ بلسانه وحلو كلامه . فوعده بقتل جوبين والانتقام لعرش برويز . فلما نازله في مباراة لبس درعه تحت ثَوبه لاتقاء ضربته . فما كان من بهرام إلا أن قتله بعدما عرف خطته من امرأته التي لم تكن تحبه. ثم أمر ببندويه ، فلم يجده لأنه كـــان قد هرب . فندم لأنه لم يقتله في السابق بل تركه إلى وقت لاحق .

وصل برويز بعد فراره مع صحبه إلى مدينة فتلقـــاه أهلهـا بالاحترام وبحمل الشراب والطعام . فارتاح مدة ثم سار ، إلى أن قَرُب من الفرات . فوجد اعرابياً يُدعى قيس بن حارث نحر ناقته لإطعامهم ووضع نفسه في خدمتهم . وسار معهم إلى أن وصلوا إلى مدينة من مدن الروم تسمى كارستان . فأغلق أهلها أبوابها في وجهـــه وامتنعوا عن استقباله لمدة ثلاثة أيام . فلما صار النهار الرابـع ، أرسل الله على المدينة ريحاً عاصفة وأمطاراً باردة فانهدّت الأسوار وفُتحت الأبـــواب . فخرج الجميع مستقبلين ، وفي قصر كان لقيصر واضعين برويز مع خاله وأصحابه . ثم قدّموا لهم الأطعمة والعلف وسائر المَبار والتحف . وساروا

حتى وصلوا مدينـــة المانوى . فاستُقبل بالإجلال وتعظيم المقدار . وأخذ برويز ما يريد من الطعام وتوجه إلى حضرة قيصر . وعـــلى الطريق مرّ براهب متنسك فأخـــذ يسأله ليعرف مستقبله . فأخبره الراهب بتحقيق قصده والرجوع إلى مُلكه وقتل عدوه ، بعد مساعدة القيصر له وزواجه من إحدى بنـــاته . لكنه حذّره من قريب ليس بالبعيد عنه اسمه بسطام (كستهم) الذي سيخرج عن حكمـــه ويُقتَل بأمره . ففزع كستهم (خاله) ودعاه إلى عدم تصديق كلام الراهب . فوعده برويز خيراً واستأمنه جهراً. وأكملوا طريقهم إلى وريغ . فاستقبله رسول قيصر باستقبال حاشد بين وفد وافد وآخر ذاهب ، مقدّماً السلاح وكل ما يحتاج . فَسُرَّ برويز منه وأخذ يتحادث معه . وطلب الى كاتبه خرّاد بتدبيج رسالة الى قيصر تسلبه لبّ عقله، وتنزع الثوب عن جسده . ثم أمره بالذهاب مع أصحابه البـــاقين . فذهبوا وفي حضرة قيصر امتثلوا . فاستقبلهم وسمع الطلب ، وأجلسهم على كراسي من ذهب . أمـــا خرّاد بن برزين فلم يتجاسر على الجلوس إلا بعد قراءة المضمون . فلما قرأه وعرف قيصر ما فيه من طلب المساعدة وكبر المعاونة ، طلب مهلة للرد على الجواب ريثما يجتمـــع بالمستشار وكبار الأمراء . فلما اجتمع بالوزير بعد مشاورة

الأمير نصحه بعدم المساعدة مذكّراً بأيام المقاتلة التي كانت تجري بين الروم والإيرانيين ، طالباً منه عدم التدخل لأنه آن الأوان لانقضاض دولة إيران ، وأن برويز إن انتصر فسينسى مساعدته ويطلب خراجه . ثم ذهبت الرسل ورجعت ، وبالردود جاوبت . فما كان من قيصر إلا أن مدّ يد المساعدة بعد الإطلاع على أخبار المنجمين وأسرار العالمين . وأخذ وعداً من برويز بعدم الاقتراب من حدود دولة الروم ومسالمة ملوكهم وعدم دفع خراجهم . فقبل برويز طلبه ووافق على المصاهرة للبرهان على حسن المعاملة.

ثم إن قيصر أراد أن يختبر ذكاء معاوني برويز ومساعديه. فأمر سحرته بصنع تمثال لجارية حسناء لها من الحسن والبهاء ما جعله يدّعي أنها ابنته . ثم طلب الى كُستَهم وبالويه الدخول عليها ومعرفة سبب حزنها وانتحابها طول الوقت . فلما دخلا ، ورأياها على هذه الحال ، سألا . فلم يُجاوب سؤالهما . ثم دخل خرّاد بن برزين ، ولاحظ أنها تبكي على نمط واحد في هيئة واحدة . فأدرك للحال أنها تمثال ، وخرج لقيصر يعلمه بالحيلة ومعرفة الوسيلة . ففرح من ذكائه وفطنته وعرض عليه أعجوبة أخرى . لم يرَ مثلها حتى كسرى . وهي فارس واقف في الهواء لا

يمسكه شيء ولا يتكىء على حيط . فلما رآه ، عرف خرّاد أنه من الحديد والبيت الذي فيه من المغناطيس الذي لا تخفى خاصيتــه في جذب الحديد ، وهو من صنع الهنود ، الذين لا تحدُّ عجائبهم حدود . ثم أخذا يتشاوران وبالديــانات يتسامران . فبيّن خرّاد محاسن ومساوىء النصرانية . وأظهر قيصر إعجابه بالزرادشتية . وتكلما عن دين الهنود وعدم تقديسهم أي معبود . فلما انتهيا ، أثنى قيصر على خرّاد لسعة معرفته ووفرة علمه . وأفاض عليه الهدايا وأمره بالذهاب مع أصحابه الى برويز لإخباره بقدوم الجيش والعروس تحت إمرة أخيه نياطوس .

ارتحل العسكر الرجراجْ سائرين كالبحر المتتابع الأمواج. فوصلوا مكان برويز الذي ما أن رآهم ، حتى أقبل على نياطوس يقبّله ويعانقه وعلى فِعْلِ قيصر يشكره . ثم ذهب الى مكان مريم عروسه . فلما رفع دونها الحجاب رآها كالشمس وقد انكشف عنها السحاب . فبقي عندها مدة . ثم قام وارتحل والى أرض ملك الأرمن وصل . فاستقبله ملكهـــا موسيل وخاله بندويه الذي كان قد اتصل بالملك بعد فراره من أرض بهرام . فنزل الجميع في خدمتــه وبالغوا في تكريم شخصه . فشكرهم وأثنى على موسيل ثم توجه الى

بيت النار وأخذ يصلي ويدعو الى الله بعدما نثر جملة من الجواهر على النار .

عندما علم جوبين بخبر اتصال برويز بقيصر ، استدعى كاتبه ورجلاً من خاصته يُدعى داناستاه . وأمر الكاتب بكتابة عدة رسائل الى أقرباء برويز الذين معه . يدعوهم فيها للاختلاف وفي حضرته يكون الائتلاف واعداً إياهم بمناصب هـامة ومراكز حساسة . وبعث هذه الرسائل مع داناستاه الذي دخل اذربيجان متنكراً بزي تاجر . فلما رأى برويز وما عليه من كبر القيمة وجلال الهيبة ، دخل عنده وأعلمه بأمر الرسائل فشكره ووهبه وعلى فعله أكرمه وعظّمه . وأمر كتّابه بالرد بالموافقة ، لكن يوم المنازلة . فلما استلم جوبين الردود ، انطلت عليه الحيلة وترك المدينة مع عساكره متّجهاً نحو اذربيجان للوقوف على أحوال برويز وعدد الروم وعُدَدِهم . فلما رآه قواد الروم ، استأذنوا برويز للقتال . فأذن لهم . فنزل كوت الرومي كالديك الرومي . فما صمد ساعة أمام جوبين . ثم التحم الجيشان وأشجع الشجعان . فَقُتِل من الروم خلق كثير . وأدرك برويز أن الروم لا ينفعون نظراً لما حلّ بهم من منون . فقرر منازلة جوبين مع أصحابه الإيرانيين .

فلما أصبحوا ، رتّبـــوا صفوف الجيش وتأهبوا للنزول . ولمّا لم يبدأوا اقترب جوبين على فيله الأبيض نحو سابور أحد قواد الإيرانيين مذكّراً إياه بالخطاب . فأنكر الأخير قوله واستغرب كلامه ، فتقدم برويز وأعلم جوبين بانطلاء الحيلة عليه واستدراجه إليه . ثم أخذا يتراشقان بالسهام ، فنزل جوبين عن فيله ورجع الى معسكره . وبينما هو راجع التقى بأخيه كردويه الذي أنّبه على سلبه الحُكم من وليّ النِّعم ورجع كل واحد منهما الى عسكره .

أما برويز ، فصمم عـلى المنازلة وحده وقتل جوبين بنفسه . لذلك انتقى أربعـــة عشر فارساً حتى يلازموه ، والبقاء خلف ظهره ليحموه . ثم تقدم نحو معسكر بهرام الذي ما أن رآه ، اختار من فرسانه أربعة ، ونزل للقتال . فلما اقتربوا خـاف أعوان برويز من قواد جوبين . فهربوا وبقي برويز وحده . فأخـذ يعدو هارباً ، وجوبين خلفه لاحقاً ، حتى وصل الى جبل كثير الشعاب . فاختفى في واحدة منها مسدودة الطريق . فأخذ يتضرع لله تعالى طالباً الإنقاذ من المولى ، فنزل عليه ملاك على شكل فارس لم يرَ مثله بين الفوارس . فأخرجه مـــن الجبل ووضعه في السهل ، مُبشّراً إياه بالانتصار واستلام عرش إيران . ثم

رجع الى عسكر الروم الذين امتلأوا بالهموم بعدمـــا ظنوا أنه قُتل . فرحّبوا برجوعه وسُرّوا بعودته . فأمرهم بشن الهجوم تلو الهجوم والقضاء على جوبين .

هجم الليل على الفريقَين وهـــم بالساحة مُتحاربين . وظهرت تباشير النصر لبرويز ، فتقـــدم بندويه الى عسكر جوبين داعياً إياهـــم الى الانضمام قبل أن يحل السلام ، فَيُجازون بفعلة قائدهم ومدبّر هجومهم . فانحـــاز إليه معظمهم وتركوا البقية خلفهم مع جوبين الذي آثر الهروب بعدما حلّت عليه الكروب ، فتوجّه الى ضيعة ، يريـــد الماء والخبز . فوجدهما عند امرأة كبيرة ، أطعمته واستقبلته ومن مائها أشربته . ومن ثم وبخت بهرام جوبين عـــلى وقاحته وعدم الدخول تحت طاعة ملكه ، غير عالمة بحاله وبحقيقة انتسابه . ثم قام بعدما نام ، قاصداً حضرة الخاقان بعدما لحق جنود برويز ، فغلبهم وأسر قائدهم نستور لكنه لم يقتله بعدما تضرّع إليه .

١٨

جوبين في أرض الصين

دخل برويز معسكر بهرام ، فنهبه بما فيه ، وأرسل منه إلى قيصر ملك الروم مُعلماً إياه بالنصر وحلول الظفر . فاستلمها قيصر وأعاد بمثلها مع أثواب وصلبان مصبوبة من الذهب ومُحلاة بالياقوت والزبرجد . فلما استلمها لبسها مضطراً لإرضاء قيصر . ثم اجتمع على الطعام مع نياطوس وبندويه . فلما جلس ليأكل . أعطاه خاله البَرسم ، فأخذه بيده وزمزم . فلما رأى نياطوس ذلك تنحى عن السماط وقال : « كيف يجتمع البَرسَم والصليب . فإنه ليلحق المسيح من ذلك الظلم الصريح ؟! » فلما رأى بندويه ذلك ، لطم صاحب الصليب بيده . فقام نياطوس من مكانه وتوجه الى عسكره . وقدم كالبرق الساطع في الليل المظلم الى خيمة

برويز طالباً تسليمه بندويه . فتدخلت مريم زوجـة برويز وطلبت من زوجهـا تسليمها بندويه حتى تأخذه الى خيمة عمها . فلما وصلا ، قام نياطوس مُستقبلاً وعن إساءتـه مسامحاً . ثم رجع معه الى حضرة برويز ، فوهبـه الأخير الخلـع السلطانية والجواهر الدرّيـة . وأفاض على الجنود . ثم قام وتوجـه الى بيت النار . فلما وصلـه ، اعتكف فيه أسبوعين شاكراً ربه ، موفيـاً وعده بتفريق الأموال على المظلومين والفقراء . ثم ارتحل من اذربيجان وسار الى انديو من أرض سورستان . فلبس التاج ، وجلس عـلى عرش جده كسرى أنو شروان .

وصل جوبين الى حضرة ملك الصين . فاستقبله بالإجلال والاحترام وإظهـار المودة والوئام . فلما وقف على طلبـه بالمساعدة ومـد يد المعاونة ، وعده بالخير ومنعـه من السير الى ملك الهند لطلب المعاونة إن رفض . فأكرمه وخصص له إيوانين مزيّنين بالفضيات والذهبيات ولم يفارقـه إلا في المناسبات .

وكان عند الخاقـان رجل شجاع وبطل مقدام يُدعى مغاتوره ، خدم أمة الصين وجلب لها النصر المبين . وكان كل يوم يجيء الى بيت المال ويأخذ منه ألف دينار . فلما

رآه جوبين ، تعجب من أمره وسوء خلقه فسأل الخاقان عنه ، فأجابه : « إنــه بطل شعبنا ، وجالب نِعَمِنا . فإن لم نعطه المال ، جرّ الفساد الى هــذه البلاد . وبهذا نهيء راحته ونستكفي شره » . فعرض عليــه جوبين أمر قتله والخلاص من أمره . فقبل الخاقان .

ولما كان اليوم الثاني دخل مغاتوره طالبــاً المال . فلم يلتفت إليه ملك الصين ، بل ردّ عليـه جوبين . طالبــاً المنازلة بدل المشاجرة . فالتقيــا وبالنبال تراشقا . وتمكن جوبين من بطل أمة الصين ، فازداد أمره عند الخاقان ، وأخذ يدخل عليه دون أن يطلب الاستئذان .

وكان مرة أن بلع ثعبان بنت الخاقان مــن الخاتون . فاهتمّ واغتمّ وطلب من جوبين تخليص الصين من أمر هذا الثعبان الذي يشبه التنين . فامتثل لأمره وخرج بقوسه وسيفه قاصداً الجبل حيث مركز الثعبــان . فلما وجده والى عين ماء استدرجه ، رشقه بسبع نشابات ، وعاجله بعدة ضربات ، قطّعت جسده ومزّقت رأسه . ثم نزل من الجبل مسروراً ومن فرحة النصر مَبهوراً . فاستُقبل بالترحاب . وبقي في تلك البلاد ، عالي اللواء راكباً صهوة العلياء ، مرموقاً من بين كل الأتراك . وزوّجه الخاقان ابنته وجعله صهره .

علم برويز بمكانة جوبين عند الخاقان ، وبتفضيله إياه حتى على الذهب الإبريز . فأرسل إليـــه رسولاً يؤنّبه ، وعلى إيواء بهرام يوبخه . ذاكراً له من هو جوبين ، حتى يكون في خدمة ملك الترك والصين . فلما استلم الخاقان رسالة برويز ، ورأى ما فيها من إنذار بعد طول الانتظار ؛ ردّ عليه برسالة أعنف وبعبارات لم تخلُ من التهديد باحتلال بلاد إيران . فلما قرأها برويز مع مستشاريه نصحوه بالمداورة واستعمال المناورة ، حتى يأمن شره ويسلم حربه ، فاختار خرّاد بن برزين للذهاب الى ملك الصين ، وإيغار صدره ضد جوبين . وحمّله بالهدايا وآلاف العطايا . فلما وصل ، وفي حضرة الخاقان امتثل ؛ وجد ان جوبين قد ترك أرض الصين وذهب لمحاربة برويز . فبقي في ضيافة ملك الصين ردحاً من الزمن . استطاع خلال هذه المدة مِنْ إحـــلال الصداقة واستطلاع الأخبار بالملاحظة . وتمكن مرة لما يعرفه من عـــلم الطب ، من الدخول على الخاتون متنكراً بزي طبيب وذلك بمساعدة صديق . فاستطاع أن يُشفي لها ابنتها المحمومة . وامتنع عن تَقَبُّل هداياها المعروضة وفاءً لجميله وحسن صنيعه ، ووعدها بترك الهدايا لغير مناسبة . فنزلت عند طلبه وعملت بأمره ، فلما حـــانت المناسبة طلب منها توقيع ملك الصين على إذن لرجل من رجال برزين ، أراد

منه أن يرحل الى أقربائه ليعلمهم بحاله . لأن بهرام كان قد طلب من الخاقان أن يمنع العبور من جيحون ، إلا بأمر منه وبختم خاتمه الذي في إصبعه . فأخذت الخاتون طينة ، وضعتها على خاتم الخاقان . فانطبعت وخرجت بها ودفعتها الى خرّاد . فأخذها الى رسوله المعتاد ، وأمره بالذهاب الى بهرام في يوم بهرام (هو اسم اليوم العشرين من كل شهر) . فإنه يتطيّر من هذا اليوم ويتشاءم به . فلما ارتحل، والى مخيم بهرام وصل ؛ طلب مقابلته . فلما أصبح في في خيمته ، اقترب من صدره وطعنه بخنجره ، فتأوه من الطعنة وارتجّ من الوقعة على الأرض . فجاءت أخته تلطم خدها وتندب حظها . وأخذت تلومه على جهله في معاداة برويز وخدمة الخاقان . فهدّأ روعها وكفكف بكاءها ونصحها عدة نصائح طالباً منها الذهاب الى دولة إيران وطلب الأمان . ومات بعد أن سلّم قيادة جيشه الى صديقه يلان . أما الرسول الذي قتل بهرام فإنهم صلبوه ، وعلى يديه ورجليه ضربوه حتى كسروها . وتركوه مرمياً في صحن الدار .

لما علم ملك الترك والصين بموت جوبين ، اجتمع مع الوزراء والأمراء لمعرفة الحقيقة في قتل الذي استجار بهم

وترك المدينة . فلما وقفوا على دقائق الخطة وعرفوا الذي قام بالمهمة ، حرقوا أولاده وجرّوا الخاتون بقرونها ، ونهبوا من خزائنها ودورها ما استطاعوا . ثم لبسوا السواد وقعدوا للحداد . وأرسل الخاقان رسالة الى أخت بهرام يعزّيها بأخيها ويعلمها بحفظ مكانها وعلو شأنها في نفسه ، طالباً منها الارتحال إليه للزواج منها والبقاء في قصرها . فلما قرأت الرسالة ، وعدته بالانتظار بعد الاعتذار لأنها ما زالت في العزاء والكلام في الزواج كأنه هَباء . ثم قامت وجمعت جيشها خلسة تريد الارتحال الى إيران لأن البقاء في بلاد توران يجلب الشر والهلاك خصوصاً على الغرباء .

علم الخاقان من أخيه طبرك بما عزمت عليه أخت بهرام . فطلب منه المسير إليها وإرجاعها معه . فإن أبَت أمره بالحرب بعد التهديد بالضرب . فلما وصل الى مكانها ، دعاها للرجوع وتنفيذ أمره المسموع . لكنها رفضت ودعته الى المبارزة كالرجال غير آبهة بمكانتها كربات الحجال . فبارزها ومات من سهمها . وهجم يلان بعد مماته على صحبه وعساكره فبدّد شملهم وفرّق جمعهم . وسار مع أخت بهرام حتى وصلوا آمل طبرستان . فاتصلت هناك بكستهم ، خال برويز، الذي التجأ الى مازندان هَرباً من

بطش برويز الذي أراد أن يفتك به بعدما فتك ببندويه ، خاله الثاني ، لأنه قتل هرمزد قبل الالتجاء الى الدير ومن ثم الاتصال بملك الروم .

استدعى برويز كردويه شقيق بهرام مُعلماً إياه بخطته والزواج من أخته إن هي قتلت زوجها كستهم . فلما وصلتها رسالة برويز مع شقيقة لها ، خنقت زوجها وأسرجت خيلها تستعد للرحيل من مازندان الى إيران . فلما وصلت ، نزل برويز واستقبلها وأحسن وفادتها . فنزلت في خدمته . وسلّمها أمرَ جواريه بعدما أظهرت له كيف قتلت شقيق الخاقان .

ومع أن جوبين قد توفي ، ومن هذه الدنيا استكفى ، فإن برويز رأى مرة اسمه على قدح من أقداحه ، فهبَّ واقفاً وعليه حاقداً . وأراد أن يولّي على الري والياً يخرب قصورها ويهدم بيوتها وبذلك يكون قد انتقم من بهرام لأن الري مسقط رأسه ومكان تربيته . فولّى عليها رجلاً غريب الأوصاف ، امتلأ قلبه بالإجحاف على بني البشر لِقُبح خلقه ونقصان عقله .

مضى الربيع وجاء الشتاء . ولم يبقَ في الري أي أثر

للبقاء ، لأن الوالي أجبر سكانها على الرحيل بعدما ملأوها بالعويل على هدم البيوت وإحراقها بالزيوت . فسكنتها الجرذان بعدما كانت ملأى بالعمران . ونزلت أبراجها الى الأرض بعدما كانت تتبارى في السماء على الركض . وهجرتها الطيور بعد السنانير وعششت مكانها العقبان والدبابير .

ولما كان الربيع الثاني خرج برويز في حفلة صيد مع زوجته أخت بهرام ، التي اصطادت سنّوراً كبيراً . فزينته وبهرجته وعلى فرس أركبته ، وأمرته بأن يعدو بين يدي برويز . فلما عدا ، ضحك برويز منها وسألها عن حاجتها . فطلبت منه عدم قتل السنّور وإرجاع الري إلى ما كانت عليه ، فنزل عند طلبها وصرف والي الري من خدمته وندم على فعلته .

ثم ان برويز ، صرف همه في ترتيب البلاد وخدمة العبّاد . فنظم الجيش وقسّمه وأرسله ليحمي حدود إيران ، وفرّق كل قطعة نقد باسم هرمزد على المتظلمين والمساكين . وقتل كل من كانت له معاملة مع قاتلي أبيه . وقسّم ساعاته وأيامه وشهوره على مصالح الملك والدين ومناهج العالمين وخصّص لكل شيء وقته ويومه . فوقت للنظر في الأمور ، وآخر للمسموع والمنظور . وقسم للهو واللعب ، وآخر

للعيش والطرب . فعمرت بلاده وخدم عبّاده ورزقه الله ولداً من بنت ملك الروم ، سمّاه قُباذ وشيرويه . فالأول لنفسه والثاني للعامة . وأراد من منجميه وعالميه الاطلاع على مستقبل شيرويه . فلما طلبوا النجوم وعرفوا بما تحوم ، أخبروا برويز بأن ابنه سيكون شريراً وسينزل في ممالكه تخريباً . فعظم عليه ذلك وحبس نفسه مدة ، عاد بعدها إلى مجانسه مُسلّماً أمره لله . ثم كتب إلى عمه ملك الروم ينبئه بقدوم المولود . ففرح به كثيراً وأرسل له ما لا يمكن وصفه ، مُهنئاً بالوليد ويوم مولده السعيد ، طالباً منه إرجاع خشبة الصليب ، وكان برويز قد غنمها في إحدى معاركه في بيت المقدس . فلما وصل الرسول وهو رجل يسمّى خانكي ، قرأ الرسالة خرّاد بن برزين ؛ فاجتمع مع أعيانه وكبار مستشاريه ، وامتنع عن إرجاع عود الصليب لأنه لو فعل سيُظن فيه السوء وتغيير السلوك ، والانتقال من الزرادشتية الى النصرانية . ففضل إبقاء الخشبة عنده ، وأرجع الرسول بطرائف من بلاد الهند والصين ومصر مُعتذراً عمّا بَدر مُقرّاً لما صَدر .

١٩

قصص كسرى برويز

وقصة شيرين قصة ، ترويها وفي حلقها غصة . فقد كان برويز يؤثرها ، وعلى غيرها من النساء يفضّلها ، لكنه لما انشغل وبحروبه حلّ وارتحل ، ابتعد عنها ولم ينشغل بغيرها . فلما هدأت الأحوال وعادت الى الانتظام بقي مُبعِداً نفسه ، كاتماً حبه الى أن كان نهار ، خرج فيه الى حفلة صيد مصطحباً الجواري والغلمان والخدّام من بني الإنسان ، إلى جانب النمور والأسود وضاربي العود يتقدمهم عدد كبير من الشبان معهم النرجس والزعفران يرشونها لتزكية الأجواء بعد الرياح الهوجاء . فلما خرج بموكبه الحافل تتقدمه الجحافل ، عرفت شيرين طريقه ، فتصدته وبثّته لواعج حبها ومخابىء قلبها وذكّرته بالأيام الغادية : أيام الحب

الدافئة والورود الناضرة . فحنّ قلبه ورجـا وده . وأمر بوضعها في خيمته الذهبية الموشاة بالخيوط الفضّية . ولمـا انتهى من صيده ، تزوجها وإلى زوجـاته ضمّها فامتنع رجاله وجافوه نظراً لما كانت عليه شيرين من قبح السيرة والأخلاق الحقيرة .

وفي يوم طلبهم ، وأمام طست ذهبي مملوء دماً وضعهم. فأمر بإراقة الدمـاء وتنظيف الطست . فعاد يبرق كأنه الشمس الطالعة من بين الغيوم الداكنة ، وقال لهم : « هذه حال شيرين . فمنذ وقعت في حُبـي ، أخلصت لقلبـي ، وغسلت ذنوبها وطهّرت دروبها . فصارت طاهرة بعـد أن كانت مساويها ظاهرة » . فرضوا عـن الملك وعادوا الى مجالسه . ونصّب شيرين ملكة بعـد أن وضعت السم لمريم بنت قيصر فقتلتها ، لأن برويز كـان يبقى معها ولا يفارقها .

واهتم برويز بما كان للجدود لأنه مـن التحف التي لا تعود . وكان لأجداده من عهد افريدون إلى عهد كسرى، عرشٌ كبير مُزينٌ باللآلىء والجواهر . اجتمعت عليه نوائب الزمان فلم يسلم من الأمـان . وكان البعض من أجداده يزيدون عليه ، والبعض الآخر ينقصون منه ، حتى جاءَ

الاسكندر ففرّق منه وخرّب بعضه . لكن أردشير الذي حكم ومن الاسكندر استلم ؛ أعاد جمع ألواحه وكل عيدانه . فلما كان عهده انتقى له ألفاً ومائة وعشرين أستاذاً . كان مع كل أستاذ ثلاثون تلميذاً ليعيدوا العرش على ما كان عليه زمن جاماسب . فرتّبوه وزيّنوه وبآلاف الجواهر رصّعوه . وكان من فرط طوله وعرضه ، يواجه الجبال من ناحية ، والبساتين والسهول من ناحية أخرى . وعملوا فيه صور البروج السيّارة وأفلاكها ومنازل القمر ومقياس ساعات الليل والنهار حتى كأنما وضعت فيه السماء بما فيها . وكان يُقسَم الى أربع طبقات . كل طبقة بجواهر تختلف عن غيرها . فالأولى للرعية . والثانية للأمراء والقواد . والثالثة للدستور والوزير . والرابعة لبرويز . وكان إذا جلس ، فُرِش له بساط طويل ، أُهديَ له من بلاد الصين منسوج بالذهب والجوهر . صوّرت فيه صور البروج والكواكب مع صور جميع من مَلَكَ الأرض الى عهده .

وكان برويز يشمل الجميع بعطفه وبحسن خلقه، خصوصاً المغنّين وأصحاب الأصوات المعروفين . وكان قد استصفى مُغنّياً يُدعى سِركس ، لحسن صوته وقوة أوتار حنجرته . وكان سِركِس هذا ، قد رشا حاجب برويز وطلب منه

عدم السماح بدخول من كان أحلى منه صوتاً وأوفر علماً.
ومن بينهم بهربَذ العوّاد، الذي ما أن سمعه بعضهم نصحوه
بالدخول الى الملك ليعرض صوته ويبرز علمه في العزف على
العود وكشف الحسود. فلما أراد الدخول منعه الحاجب
ممتثلاً لأوامر سِركِس.

وظلّ بهربذ يحاول الدخول ويتخيل المأمول، حتى صادق
بستانياً كان الملك يدخل الى بستانه لينعم بأفيائه وأظلاله
وهو في مجالسه بين مغنيه ومسامريه. وصدف مرة أن جاء
الملك وجلس تحت شجرة سرو باسقة يريد الارتياح وشرب
أقداح الراح. فذهب البستاني ودعا بهربذ. فجاء وتسلق
الشجرة وأخذ يغني بأصوات مختلفة. فَسُرَّ الملك من
صوته. وأخذ يفتش عنه ولا يجده. وظلّ يشرب وذاك
يغني حتى ثمل فنزل من أعلى الشجرة وقدَّم نفسه وحكى
قصته مع الحاجب. فأنَّب برويز سِركِس واتّخذ بهربذ
مطربه الخاص بعد أن أثراه وقدّمه على أقرانه من
أهل زمانه.

وبنى برويز الإيوان الذي ما زالت أقسامه قائمة حتى
الآن. وهو الذي وصفه البحتري في سينيته المشهورة
حين قال:

فهـــو يبدي تجلداً وعليـــه كلكل من كلاكل الدهر مرسي

ولبنائه اختار أحذق الصنّاع والحفّار . ووضعهم تحت إمرة رومي صمم له البناء بالشكل المطلوب . وكلّفـــه أن يَبقى البناء حتى ولو صار هو في دنيـا الفناء . فهو يريد لابنه أن يجلس فيه ويحكم منـه ، ولأحفاده أن لا يرتحلوا عنه . فجعل الجدران قوية قادرة على الصمود على نوائب الزمان ، وعمّرها بالجص الذي لا يتأثر بالثلج والمطر ولا بعوامل الدهر . فارتفع البناء بهجة للنظر ومَرتعاً للقمر . وبقيت القبة . فاستمهله الرومي حتى يشتد البناء ولا يتهدّم إذا صار في دنيا الفناء . لكن برويز استطال المدة ، وأمره ببناء القبة . وأعطاه ثلاثين ألف دينار حتى يسرع في العمار . لكنه هرب وعجز غيره عن إتمام الطلب . وظلّ كذلك ثلاث سنين . فلما كانت السنة الرابعـة ، ظهر وذهب إلى برويز . فلما سألـه عن فراره ، أجابـــه بأخباره قائلاً : « لما كانت الحجارة لا تشتد إلا بمرور الزمن ولا تسيح كالسمن مـن نور الشمس ، كأنهـا صُنِعَت بالأمس . وجدت من الأفضل أن أتوارى ، وغيري في صنع البنـــاء لا يتبارى . واليوم لو رأيت الإيوان فقد نقص عما كان . ولو بنينا القبة حين أمرت بالعدة ، لَتهدمت على مَن فيها

وقتلت مستظليها » . فاستصوب برويز رأيه ، وعمل بما أراده لإكمال البناء ومناطحة السماء . فاشتغل به وانتهى منه بعد سبع سنين من العمل . وكان من عادة برويز أن يجلس فيه يوم النيروز ، ينظر في أحوال الرعية كأنه في المجالس الأهلية وحوله الوزراء والكتاب والأسواق المشتملة على النفائس والأعلاق .

وعظم أمر برويز . فامتد حكمه على ممالك إيران وتعداها الى بلاد توران . وأصبحت كل البلاد تدفع له الخراج ، فعمرت خزائنه بالمال الذي لم يكن على البال . وسمّى كنوزه بأسماء معينة . فهذا « باذا ورد » أي محمول الريح لأنه وُجِدَ على شاطىء بحر ، قذفته الأمواج وحملته الرياح الى ذلك الشاطىء . وذلك كنز افراسياب . وآخر المجرّق . فلما انتشى من سكرة المجد ، تحول في حكمه عن الجد . فطغى واعتدى وولى حارساً كان على بابه يُدعى زاذ فرخ إدارة ممالكه وشؤون ملكه . فنهب القصور وأحرق الدور . ووضع يده بيد قائد قواده المدعو جُرازا، الذي قاطع برويز وراسل قيصر داعياً إياه الى احتلال بلاد إيران . فهبَّ قيصر بجنوده بعدما أتته رسل جرازا . لكن برويز عرف بالأمر وتحلى بالصبر وأرسل كتاباً الى جرازا

يهنئه بخداع الروم وجلبهم الى إيران بعد قطعهم بلاد توران . وطلب من الرسول أن يُوقِعَ نفسه بين يدي قيصر . فلما وقع وقرأ قيصر الرسالة الموجهة الى جرازا ، تنبّه للخطة . فأمر جيشه بالرجوع الى بلادهم ، وأرسل رسالة الى جرازا يوبّخه ويعنّفه ، وعلى خيانته له يؤنّبه . فأرسل له جرازا رسولاً يفهمه الحيلة التي عملها برويز للإيقاع بينهما . لكنه لم يقتنع ، ولم يرجع .

أرسل برويز رسالة الى جرازا ، يطلب منه إرسال الجنود الذين راسلوا قيصر وكاتبوه ، فأوفد إليه اثني عشر ألفاً . آمراً إياهم بالتظاهر والتوافق . فلما وصلوا وتحت إمرة زاذ فرخ اجتمعوا ، أمرهم بالفوضى وكثرة الشكوى من حكم برويز . ثم دخل على الملك يعلمه بشكواهم وكثرة بلواهم ، ففطن برويز للحيلة . لكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً لزاذ فرخ . لأنه كان قد تواطأ مع رجاله على خلعه وتنصيب شيرويه مكانه . ولازم زاذ فرخ باب برويز. وأرسل قائده تخوار لجلب شيرويه من الأسر . وكان والده قد أسره ، وفي قصور بابل وضعه بعدما خرقها ووصلها، حتى يكون حراً في أسره ويرتاح الناس من شره . فلما وصل شيرويه أو قُباذ . أدخلوا عليه غلاماً صغيراً ، معه جوهرة

ثمينة تخص برويز . فسأله عن أصلها وسبب وجودها معه . فأخبره انها لبستاني أمره بشراء بعض الطعام والشراب لرجل يشبه الملك . فأمر شيرويه زاذ فرخ بالتوجه الى ذلك البستان وإعطاء الأمـــان لأصحاب المكان . فلما وصل رأى برويز الذي كان قد هرب من قصره لما سمع بأمر قتله . فتوجـه الى ذلك البستان بعدما غيّر المكان . وأعطى الغـلام تلك الجوهرة ليشتري بثمنها ما يسد جوعه ويروي ظمأه . فقبض عليه زاذ فرخ وأركبه على فيل وأرسله الى طيسفون بأمر من والده قُباذ . فَحُبِس هناك بعـــد أن حكم ثماني وثلاثين سنة .

٢٠

الانهيار

اختار قُباذ عندما استلم ، وعلى عرش السلطنة حكم ، شيخين طاعنين هما خرّاد بن برزين واسفاذ كشسَب . أوفدهما الى طيسفون لإصلاح الحال بينه وبين أبيه . وبعث معهما رسالة ذكّر والده فيها أنه إنما صار به ذلك فمن كثرة ما أُصيب بـه الناس في عهده بالهوالك ، فمن يسفك دم أبيه ، ويحاول تفريق الأخ عن أخيه ، ويمتنع عن إرسال الصليب ويحبس أولاده عن الحكم السليب .. فلا عجب ان صار مكانـه السجن بعد فقدان الأمن ! فحملا الرسالة وتوجها الى طيسفون . فاستقبلا بالإكرام من قِبَلِ حارس برويز الذي دخل معهما . فأدّوا السلام وأظهروا الوئـام لبرويز الذي كان جالساً على بساط منسوج بالذهب ومرصع

باللآلىء والجواهر وفي يده سفرجلــة . فلما دخلوا وقعت السفرجلة الى الأرض . فتطيّر منها وتشاءم بها . ولما سمع الرسالة ، أقام المقارنة بينه وبين ولده ، وأرجعهم بالجواب مُظهراً الأسباب التي دفعته ليفعل مــا ذكره ولده . فمن يبعث الصليب إلى الروم ، فَسَيُظَنّ به السوء وفعل المكروه . ومن يحبس الإخوة ، فخوفاً من طَمَعِهم وكبر جشعهم ، وهــم إذا حُبِسوا إنما وضِعوا بقصور متصلة وبساتين معشبة . فلم يكن الحبس حبساً ، بل روضاً ومَلعباً . ومَن انتظر في أخذِ ثأر أبيــه ، فلأنه كان مهمومــاً ، وبأمر استرداد الحكم من بهرام كان مَشغولاً ، فلما استتب لــه الأمان عاقب بندويه وجعل زوجة كستهم تخنقه . فلما سمع قُباذ تلك الأجوبة ، انفرد بنفسه وأخذ يبكي ، عالماً أن الأمر ليس بيده ، بل بيد الذين نصّبوه وسُدَّة الحكم سلّموه .

ثم إن بهربذ العوّاد سمِـع مـا أصاب برويز ، وتغير حاله التي لم تبقَ مثل الذهب الإبريز . فقَدِم الى طيسفون ، وزار مكــان المجون . فانتحبَ بكاءً وعلى عز برويز نزل مُغنّياً . فمن يصدق أن صاحب الإيوان يضيق عليه الزمـان ويُسجن في مكان ضيق مثل حبات الرمان ؟ أين

المجالس والأعراس التي كانت من بهائها تحبس الأنفاس ؟ أين العز والسلطان ، هل ضاق بهما الزمان ؟ أم تحولا الى غير مكان ؟ أين العساكر الجرّارة مثل البحار الهدّارة ؟ أين المرح ؟ أين الفرح ؟ أين الراح الذي كان يُصب في الأقداح ؟ أين ؟ وأين ؟ وأين ؟ أين كل هذا ؟ فقد ذهب مع ذهاب برويز الذي عاد وقتله رجلٌ كان ماراً في الطريق ، قبيح الصورة ، حافياً بائساً جائعاً بأمر من زاذ فرخ الذي ظلّ مع أعوانه وأصحابه يلحّون على قُباذ بقتل الوالد ، لأنهم تضايقوا من تفاهم الولد والوالد . ولما لم يستطيعوا أن يقتلوه بأنفسهم ، وجّهوا ذلك الرجل بعدما أغنوه وأشبعوه . فدخل على برويز وقتله بخنجر كان معه . فلما انتشر خبر قتله ، دخل الطغاة الملاعين والبُغاة الشياطين الى محابس أولاده فقتلوهم جميعاً دون أن يحرّك قُباذ ساكناً .

بعد ثلاث وخمسين يوماً من مقتل برويز ، أرسل قُباذ رسالة الى شيرين يهددها ويؤنبها ويخاطبها بالساحرة الفاجرة ، ويدعوها إلى حضرته . لكنها رفضت المجيء لما سمعت بفعله البذيء . ثم عاد وأرسل وراءها . فجاءت بلباس الحداد وقطعة سم بيدها ، بعد أن أخذت منه وعداً بوجود مشايخ الدولة وأعيان الحضرة . فلما مثُلَت بين يديه ،

أخذت تبرّىءُ ساحتها وتنقذ نفسها متهمة قُباذ بالضلال وسوء الانحلال . ولما طلب قُباذ منها الزواج ، طلبت منه الإنصاف في ثلاثة أشياء ، هي السيرة الحميدة والخصال الجميلة مع الزوج والأولاد ، التي أشهدت عليها الأعيان ، فشهدوا لها بالأمان ودَعوها الى الاطمئنان . أما الحاجة الثانية فهي إرجاع ما كان لها من صامت وناطق ، وهذا ما شهدت به الخلائق . فكتب قُباذ كل شيء كان لها وباسمها . أما الحاجة الثالثة فطلبت منه السماح لها بزيارة قبر برويز لتجديد عهده وهو في لَحده . فسمح لها بالزيارة . فلما صارت بقربه ، أكلت من قطعة السم التي كانت معها . فماتت للحال . فلما انتهى الخبر الى قُباذ أخذ في البكاء والعويل حتى مرض من فرط الجزع . فمات بعد أن سمموه . وانتقل الأمر من بعده إلى ولده أردشير الذي أحسن التدبير لكنه لم يُحسن التنصيب . فوضع على قيادة جيشه رجلاً يُدعى فيروز الذي اتصل به جراز حارس الحدود من جهة الروم . فزيَّن له الأمور ووعده بالسرور إن هو ساعده على هلاك أردشير دون أن يعرف الكبير ولا الصغير . فعمل برأيه وانفرد بنفسه ، وزار مرة أردشير في قصره المنير ، فجلسا للشراب وسكر أردشير من كثرة شُربه . فقام فيروز وكتّم فمه خانقاً أنفاسه . فمات ونصّبوا

مكانـــه فرائين الذي لم يكن من بيت الملك . فأسرف في التبذير ولم يعرف كيف يُدير . ففرغت الخزائن، واجتمعوا ضده في المدائن بقيادة جراز دون أن يعلم . فلما كان معه جراز في حفلة صيد وجّـه اليه قوسه وقتله . ولما لم يجدوا أحداً لتنصيبه ، وضعوا بوران بنت برويز فوعدتهم بالعدل والإنصاف ، والجمع بعـــد الائتلاف . وأرسلت في طلب فيروز قاتل أردشير . فقتلته بعدما كتّفته وربطته . وماتت بعد أن مرضت . ثم جاءت أختهـا أزرم دُخت فحكمت أربعة أشهر ثم قَضَت نَحبها ولحقت صَحبهـــا . فاستلم شقيقها فرّخ زاد ، وهو مـن الذين فرّوا يوم مقتل والده فالتجأ إلى حصن بناحية نصيبين . لكنـــه لم يحكم إلا شهراً من الزمان ، لأنه سُقي سماً فمات .

٢١

النهايـــة

قد تكون الأحلام نهاية للسلام ، فكما لكل شيء بداية كذلك له نهاية . فالدولة قد ضعفت ، وأحوالها تفككت . والملوك الذين وُلّوا لم يطوّلوا . وقد آذنت للشمس بالمغيب بعد ظهور الدين الجديد . وقـــد قال المنجمون لبرويز : « ستنتهي الدولة بعد ذهابك ، بحفيد يكون على بابك . علامته نقص في جسده ورجحان في عقله . فإن لم تبادر الى الإنقاذ ، فَقُل عـــلى الدولة السلام » . فهرع الى أحفاده ، يفتش في أجسادهم عن علامة نقصهم . فلما لم يجدها ، منع أولاده عن الجماع والاقتراب من النساء . وكان له ولد يُدعى شهريار بدون نسب ولا قرار ، تبنته شيرين وجعلته حارسها الأمين . فلما أصدر برويز قراره ونُفّـــذ

أمره ، غلبت على شهريار شهوة الجماع ، حتى سلبته النوم والقرار ، فأرسل الى شيرين يعلمها وعن حـــاله يخبرها .
فأرسلت له جارية خفية ، فضاجعها وحملت منه ولـداً ، في أحـد وركيه نقص . فلما عرف به برويز ، منعه من المثول أمامه ، وأرسله الى ديـــار بعيدة وأخفى أمره عن أهل العقيدة . فلما مات فرّخ زاد ، فتشوا في السجلات وعرفوا مكانه . فجلبوه وولوه وعلى عرش إيران وضعوه .
فلما استلم قرر أن يحكم بالعدل والإنصاف مُبعداً عن شعبه أمور الاختلاف . وبقي مدة مشغولاً في حكمه وبنـــاء دولته حتى ظهر الدين الجديد يدعو الى المحبة والتوحيد .
وأوفد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، « سعد بن أبـي وقاص » الى شعب إيران يدعوهم الى الإسلام واجتناب الحرام . فولّى يزدجرد قيـــادة جيشه الى رستم . فكانت وقعة القادسية التي انتصرت فيها الدولة الإسلامية . وكان رستم منجّماً ، وعلى أحوال الفلك مُطّلعـــاً . فلما اطلع على النجوم ، رأى دلائل الانتهاء قد بدأت تحوم . فكتب كتاباً الى أخيه يخبره عن مرائيه . وينصحه بجمع المـــال والأثمان والاعتصاب في أذربيجان . ثم كتب رسالة أخرى الى « سعد بن أبـي وقاص » ، يحذّر فيها العرب من نيل القصاص . ثم أخذ يحقّرهم على وضاعـــة أصلهم

وبساطة عيشهم ، ورثّ ملابسهم ، وفظاظة طعامهم ، مُتباهياً بغنـــاء ملوك العجم وسيطرتهم على سائر الأمم . وأرسل الرسالة مع فيروز بن سابور أحد أمرائه ، وجماعة من أماثل الفرس بالملابس الفاخرة والهدايا الباهرة . فاستقبلهم «سعد» وأكرمهم واعتذر لهم عن بساطة المكان ، وفظاظة الإنسان القادم من الصحراء . ثم ردّ على الرسالة بجواب أعقل وبأسلوب أشمل . داعياً الى المحبة والإيمان والدخول في دين الإسلام . ثم وصف الجنة ونعيمها، والسعير والعذاب الزمهرير . ودعاه الى طاعة الرسول وعبادة الإله الواحد . وإن لم يعبد ، فملك الدارين له مُسلّم ، وهو على التاج والعرش مقرر محكّم . ثم أعطى الرسالة الى رسوله شُعبة الذي ما أن وصل الى حضرة يزدجرد حتى استقبله أكابر إيران وأعيان الزمان . فدخل عليهم وحيّاهم بتحية الإسلام وأعطى الرسالة الى يزدجرد الذي ما أن قرأهـــا ورأى ما فيها من وعد ووعيد وحرب وتهديد حتى قام للقتـــال . فبارز رستم « سعداً » وانهزم ، والجثث من خلفـــه في إكم من شدة القتال والعطش . ثم تابع المسلمون القتال ووصلوا الى بغداد ، فتقابلوا مع فرخ زاد شقيق رستم ، الذي من شدة بطشهم وكثرة عددهم ، دخل على ملكـــه يزدجرد . فنصحه بالمغادرة واجتناب المغامرة . فترك بغداد

قاصداً مرو لما بينه وبين ملكها ماهويه من صداقة وكثرة مُعاشرة . فهو الذي ولاّه بعدما كان راعياً ، وعلى كرسي مرو وضعه مُساعداً ، وهو بالرغم من لؤمه سيساعده ، وعلى غيره من الأمراء سيفضله . معتمداً أيضاً على مساعدة الممالك المجاورة خصوصاً بعد إتمام المراسلة . فترك بغداد ووصل مرو بعدما مرّ ببُست ونيسابور وطوس . فاستقبله ماهويه مُعفّراً وجهه في التراب ، ومن ثم أوصله إلى الباب واضعاً جنوده في خدمته ، وعدته في تصرفه . ففرح فُرُّخزاد بذلك وتوجّه الى الري بإذن من الملك .

وصلت الأخبار الى مرو بأن « سعداً » قد استولى على المدائن وسائر ما تاخمها من الممالك . فعملت في رأس ماهويه الحيلة وأخذ يفتش عن وسيلة للحصول على السلطنة والجلوس على عرش المملكة . فتقاعس عن خدمة يزدجرد وراسل بيزن ملك سمرقند من بلاد الترك يعلمه بقرب نهاية يزدجرد والدخول تحت طاعته إلى الأبد . فأرسل الأخير والده برسام، ناوياً على عدم إحلال السلام . فقابل يزدجرد في مرو بجيش عظيم . وتتابعت الضربات على الإيرانيين ، ولم يكونوا من المنتصرين . بل هرب معظمهم بعد خيانة ماهويه لهم . واستطاع برسام اللحاق بيزدجرد بعد فراره واختبائه في

طاحونة قديمة . لكنه لم يتمكن منه لانشغال جنوده بفرس يزدجرد المحلّى بالذهب وأعواد القصب .

افترش يزدجرد التراب وهو في تلك الطاحونة الخراب . فلما جاء صاحبها ، وجده على تلك الهيئة ، وعلى وجهه وثيابه الذهبية آثار الهيبة . فقدّم له الطعام وساءله عن جنود برسام الذين كانوا قرب الطاحونة . فنكر يزدجرد أمرهم وجهل بحثهم . وأخذ يأكل . ثم طلب البرسيم ليأكله مع الطعام . فذهب الطحّان ليجلب منه ، وعند دار زعيم المنطقة سُئِل عنه (أي عن يزدجرد) . فوصف أوصافه ، وأخبرهم أنه في بيته يأكل طعامه . فعرف الزعيم أنه يزدجرد ونصحه بإبلاغ ماهويه . فلما حضر عنده ، سأله عنه . ثم أمره بالذهاب وقطع رأسه . لكن العلماء نصحوه وعن غيّه أبعدوه . فلا يجوز قتل صاحب النعمة الذي عامله بالمحبة . فتظاهر أنه رضي ، وعن رأيه ابتعد . فلما أمسى أحضر ثقاته للمشاورة وتحضير المؤامرة . فمنهم من أقرّ قتله ، وبعضهم فضّل حبسه . فوجد أنه إن سُجن ، فلا مأمن منه ومن مؤازرة الجنود له . وانه إن قُتِل فبحيلة يستطيع الاستيلاء على المُلك والادعاء بأنه الحق . فأمر الطحّان بقتل يزدجرد . وأرسل وراءه بعض

غلمانه للتأكد من قتله والاهتمام بتاجه وطوقه وخاتمه . فذهب الطحان وقتل يزدجرد . وجاء الغلمان ورموا جثته في الماء . فانتشلها في اليوم الثاني بعض الرهبان ، كانوا في دير على شط الماء . فبكوه وانتحبوه وفي ناووس كفّنوه . فلما علم ماهويه بحالهم أمر بقتلهم وإحراق ديرهم ، ففعلوا .

ثم انه اجتمع بوزيره ومشير أمره . فاستطاعا الإدعاء أن يزدجرد لما عاجلته المنية ، أوصى إلى ماهويه تنفيذ الوصيّة التي تقضي بتنصيبه على ممالك إيران من خراسان الى سائر البلدان . فتسلم التاج والعرش مُدّعياً أنه الحق بعد كذبة لم يكن فيها أي نوع للصدق . ثم جمع العساكر وعبر جيحون يريد منازلة بيزن الذي ساعده على يزدجرد . وحجته في ذلك الانتقام من ملك الترك كما أمره الملك يزدجرد قبل مماته . فلاقاه الأخير بفلول جيشه وضخامة عدده واضعاً على رأسه ابنه برسام . فلما تقابلا ، استطاع برسام منه ، لما وقع عن الفرس واندقّت رقبته . فحمله برسام الى أبيه الذي أمر بقطع أعضائه وإحراقه مع ثلاثة من أولاده قُبض عليهم في المعركة . فماتوا وخلا عرش إيران . فملكها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، ناشراً الإسلام منبراً للحق ومكاناً للصدق .

فهرست

